الأزهر
مجمع البحوث الإسلامية

اسرائيل
ركيزة للاستعمار بين المسلمين

للدكتور حسن ظاظا
الأستاذ بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية

القاهرة
الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
١٣٩٣ هـ — ١٩٧٣ م

اسرائيل
ركيزة للاستعمار بين المسلمين

للدكتور حسن ظاظا
الأستاذ بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية

القاهرة
الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
١٣٩٣ هـ — ١٩٧٣ م

تقديم

لفضيلة الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار
الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

نحمد الله ونستعينه، ونؤمن به، ونتوكل عليه، ونصلى ونسلم على رسوله الكريم محمد - صلى الله عليه وسلم - وعلى آله وصحابته، ومن دعا إلى الله على بصيرة، وجاهد فى سبيل الله حتى أظهره الله، ونسأل الله النصرة على أعداء الحق، دعاة الباطل الذين أفسدوا فى الأرض، وعتوا عتواً كبيرا.

وبعد:

فنقدم للقارىء بحثين جديرين بالتقدير والاهتمام، للأستاذ الدكتور حسن ظاظا: البحث الأول وعنوانه «إسرائيل ركيزة للاستعمار بين المسلمين» وقد ناقشه المؤتمر السابع لمجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة فى سنة ١٣٩٢ هـ - سنة ١٩٧٢ م، وقرر نشره منفصلا حتى يسهل للقارىء الحصول عليه.

والأستاذ مؤلف البحث، تعرض فيه لقضية فلسطين، وعمل إسرائيل، عبر التاريخ الطويل، على إيجاد وطن قومى لليهود، ثم عرض لتقسيم فلسطين، ومن أعانوا عليه من الشرق والغرب، وذكر فيه رغم اختصاره حقائق تاريخية يستخلص منها القارئ أن عرب الأرض السليبة

ـ فلسطين ـ يواجهون حملة إبادة ، دبر لها منذ قرون ، لتنفذ على يد الاستعمار وليساندها الاستعمار الجديد . ولكن الله غالب على أمره ، ولا بد من أن يعود الحق إلى نصابه (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون) .

والبحث الثانى وعنوانه « القدس » هل هى مدينة الله ؟ أم مدينة داود ؟ يعرض المؤلف القضية من أساسها ، منذ نشأتها ، وما مر عليها من أطوار مختلفة ، على امتداد التاريخ ، مدعما بحثه العلمى بالحجج ، ومؤيدا بالبراهين ، كاشفاً عن وجه الصهيونية المعقد ، ومغالطتها المقصودة ، رابطاً بين ما ضيهم وحاضرهم ، ومفنداً مزاعم الصهيونيين بأن القدس مدينة داود ، وينتهى إلى نتيجة علمية بأن القدس مدينة الله .

والكتاب فى جملته وتفصيله ، زاد جديد ، لا غنى عنه لكل عربى ، وسلاح فكرى لكل مسلم .

هذا وقد جمعنا البحثين فى كتاب ، لأن موضوعهما واحد ، والغرض منهما واحد .

وفق الله الجميع لما فيه نفع الإسلام والمسلمين .

دكتور . محمد عبد الرحمن بيصار
الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

إسرائيل

ركيزة للاستعمار بين المسلمين

للأستاذ الدكتور حسن ظاظا
الأستاذ بكلية الآداب بجامعة الأسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

في يوم ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ ترامى إلى العالم من أقصاه إلى أقصاه نبأ قيام دولة جديدة في فلسطين ، هي إسرائيل ، وفي هذا الوقت كانت جراح الإنسانية التي أصيبت بها في الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥ ما تزال مفتوحة دامية ، كان كثير من الأطفال في العالم ما يزالون بعد يجهلون إذا كان آباؤهم أسرى أو أنهم قد قتلوا وتركوهم أيتاماً ، وكان الدمار الذي اكتسح أوربا والشرق الأوسط والأقصى ما يزال ماثلا للعيان ، تكاد تفوح منه رائحة الدم والبارود ، وكانت هيئة الأمم المتحدة التي أنشئت على عجل ، لتتبلور فيها كل أحلام السلام والأمن والرخاء ، تعيش حقبة وردية من حياتها ، تتعلق بها الأنفاس الضعيفة المتقطعة التي بقيت في صدور البشر بعد أعوام طويلة من القتال الرهيب ، كانت الأمم المتحدة قبلة الأنظار ، وكعبة الآمال ، وموضع ثقة الجميع وتفاؤلهم ، ولم تكن الأمم المتحدة ، وهي تتمتع بكل هذا الإعزاز وترى ضيق الناس بالحرب ، واشمئزازهم

من الدمار ، قديرة على البحث بصبر وحذر فى الأعماق البعيدة للمشاكل كانت تعتقد أنها ، بتأييد الجنس والإذعان البشرى الذى كانت تتخيله مجمعاً على طاعتها والرضوخ لحلولها ، تستطيع أن تصنع المعجزات ، وكانت دولة إسرائيل من هذه المعجزات الوهمية .

ولم تنتظر الأمم المتحدة قيام دولة إسرائيل أولا لتقول كلمتها ، وتنطق بحكمها فى النزاع ، بل تسببت « نواياها الطيبة فى السلام » فى إعطاء صفة رسمية لإسرائيل قبل قيام إسرائيل بستة أشهر تقريباً ، ففى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ ، صدر عن هيئة الأمم المتحدة قرار ملزم بتقسيم فلسطين بين اليهود والعرب ، كان قراراً ملزماً لأنه حاز أكثر من أغلبية ثلثى الأعضاء ، ومع ذلك فلم يكن هذا القرار يحمل أيّةَ سمة للعبقرية المبدعة المنتظرة من الأمم المتحدة ، صانعة المعجزات ، ففكرة « تقسيم فلسطين » لم تكن إذ ذاك بالفكرة الجديدة المبتكرة ، كانت بقعة من بصمات أصابع الاستعمار القذرة أفلتت من حرص منظمة السلام العالمى على الغسيل والتنظيف ، ولنحاول بيان طرف من ذلك .

اندلعت الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ – ١٩١٨ كنهاية رهيبة لصراع من قبل الدول الأوربية على السيطرة على أسواق العالم ومواطن الخامات الصناعية فيه ، كانت انجلترا وفرنسا وهولندا وألمانيا وإيطاليا والبرتغال وأسبانيا وبلجيكا تتناحر على استعمار أوطان الإنسانية المتخلفة فى آسيا وإفريقيا . وبقيت منطقة الشرق الأوسط مستعصية على هذا الاستعمار ، لأنها كانت جزءًا من الخلافة الإسلامية التركية التى أقامها العثمانيون فى القسطنطينية منذ أواسط القرن الخامس عشر ،

ولكن تركيا كانت قد ضعفت ماليًّا وعسكريًّا على مدى القرن التاسع عشر وراحت مستعمراتها الأُوربية ذات الأَكثرية المسيحية تستقل الواحدة تلو الأُخرى فى البلقان وشرق أُوربا ، كما بدأَت المشاكل الإِقليمية والقومية تظهر بكامل قوتها لتقوض ما بقى من تماسك امبراطورية آل عثمان الأَكراد ، الأَقليات المسيحية فى غرب آسيا كالأَرمن والموارنة والروم الأُرثوذكس ، والعرب بوعيهم الحضارى والوطنى ، كل هذا وضع ميراث هذه الامبراطورية على مائدة المطامع السياسية الأُوربية ، وكان سبباً من الأَسباب التى دارت من أَجلها رحى الحرب العالمية الأُولى ، بل لعله كان أَهم الأَسباب .

ووجدت انجلترا ، وهى تخوض غمار هذه الحرب ، وتكاد من الإِجهاد تفقد أَنفاسها ، وجدت قوة خفية تعاود الدخول بها فى المعمعة ، هى تسخير اليهود لأَهدافها ومطامعها ، وكان اليهود قد استولى عليهم حلم قديم بلوره لهم تيودور هرتسل تحت شعار « الصهيونية » ، وجمع مندوبين عنهم لتخطيط سياسة هذه المنظمة الجهنمية فى المؤتمر الصهيونى الأَول ، الذى انعقد فى مدينة بال بسويسرا سنة ١٨٩٧ ، وتعاقبت بعده المؤتمرات ،ومات هرتسل سنة ١٩٠٤ وهو فى الرابعة والأَربعين من عمره ، تاركاً وراءه كتابه « دولة اليهود » وحزبه « الصهيونية العالمية » ، وخليفته « حايم وايزمان » ، وكانت الصهيونية تتقدم بطيئة جدا لقلة إِيمان اليهود ببرنامجها ، وخوفهم من نوع الحياة التى تخيلها لهم زعماءُ هذه الحركة فى فلسطين ، يضاف إلى هذا ، العقبات الطبيعية التى كان لا بدَّ أَن تقوم فى وجه الاستعمار اليهودى لفلسطين من جانب الدولة العثمانية والأُمة العربية ، نظراً لكون فلسطين أَرضاً

مقدسة دينياً منهم جميعاً ، فيها الصخرة الشريفة ، والحرم الإسلامى ، أول القبلتين ، وفيها أيضاً مسقط رأس المسيح ، ومسرح جهاده ومنتهى أمره من هذه الدنيا .

أحست انجلترا بأن وضعها لليهود فى الميزان سيرجح كفتها ، وقبل اليهود اللعبة ثقة منهم بأن النزاع حول فلسطين إذا انتقل فى المستقبل يكون مع انجلترا بدلا من العرب والأتراك فإنه سيكون نزاعاً هيناً خفيفاً لطيفاً ، لا يدخل فيه الحرص على المقدسات بقدر الحرص على المصالح ؛ وفلسطين بعد كل شىء ليست وطناً للانجليز ، وليس لهم فيها حرم أو قبلة ، كما أنهم ليست لهم حدود مشتركة معها .

وبدأت المساومات حول الموضوع بين الانجليز واليهود وليس لأى منهما وجود فى فلسطين : الانجليز فى مصر ، وأساطيلهم فى البحر الأبيض ، واليهود فى كل مكان ، وأموالهم تتحكم فى أكثر مقدرات العالم وأرزاقه ، وهكذا تمت الخطوة الأولى لتهويد فلسطين ، بين طرفين لا يملكان فيها شيئاً ، الطرف الأول هو وزير خارجية بريطانيا « بلفور » ، والطرف الثانى هو اللورد « روتشيلد » ظاهرياً ، « وحاييم وايزمان » من وراء ستار ، بل كان وراء هذا الستار أكثر من يهودى يلعبون لعبتهم فى الظلام ، وفى مقدمتهم الحاخام الأكبر « هيرتس » ، الزعيم الروحى والكاهن الأعظم ليهود بريطانيا وما وراء البحار ، على كل حال ظهر تصريح بلفور يوم ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ يعد اليهود بنصيب فى فلسطين عند نهاية هذه الحرب .

كان اليهود قد مهدوا الطريق لتجميع كلمتهم قبيل تصريح بلفور على تأييد انجلترا تحت شعار « المصالح المشتركة » ، ونذكر من هذه التحركات أن أحد الجواسيس العسكريين من غلاة الصهيونية ، وهو « يوسف ترومپلدور » كان قد وقع فى يد القوات التركية فى فلسطين ، ولكنه فر من سجنه أثناء الحرب وجاء خلسة إلى القاهرة ، وهنا التقى بزعيم الإرهابيين الصهيونيين اليهودى المتطرف « زئيف جابوتنسكى » ، واتفق معه على إنشاء « جيش يهودى صهيونى » يحارب العرب والأتراك تحت الراية البريطانية ، وفى صيف ١٩١٦ ، بعد موقعة غاليبولى بين الأتراك والحلفاء الأوربيين ، سافر الاثنان إلى لندن حيث بدآ باستقطاب المتطوعين اليهود ، وتكونت منهم الفرقة الثامنة والثلاثون البريطانية ، تحت قيادة الكولونيل الانجليزى المسيحى « باترسون » ، أما ضابط الاتصال المباشر ، والعقل المنظم لتحركات هذه الفرقة والمشرف على تنميتها وتدريبها فقد كان ترومبلدور . ودخلها جاپوتنسكى نفسه كجندى بسيط ، ثم رقى بعد ذلك إلى درجة ملازم ، تقديراً من القيادة البريطانية لما يبديه من حماسة وهمّة وإخلاص .

تلقت هذه الفرقة تدريباً نهائياً فى الاسكندرية ، ثم صدر لها الأمر مع تصريح بلفور — وهذه طبعاً ليست مجرد صدفة — بالتحرك فى اتجاه فلسطين مع الجيش البريطانى الزاحف عليها بقيادة الجنرال اللنبى ،

وفى أرض سيناء ، وهذه الكتيبة الصهيونية تقترب من حدود فلسطين أصدر جاپوتنسكى الأمر اليومى العسكرى التالى :

اسمع ياإسرائيل[1] . أنصت لصوت قلبك . إن ساعة الاستيلاء على فلسطين قد حانت وليس من المعقول أن نترك الناس من الأمم الأخرى يستولون عليها . استمع لصوت عقلك ، ليس من المنطق أن يحارب الانجليز هنا أمام أعيننا ، ونحن قاعدون فى بيوتنا إلى أن يعيدوا إلينا هذه البلاد وقد أخذوها بدمائهم ، أنصت لما يقوله لك شعورك بالكرامة . هل من الممكن أن نقبل هدية كهذه ممن استولوا على تلك الأرض بمهجهم دون أن نبذل أرواحنا معهم جنباً إلى جنب ؟ إن دماء آبائنا التى سالت على هذه الأرض منذ آلاف السنين ، ودم الانجليز الذين يساعدوننا اليوم فى الاستيلاء عليها لدم مقدس ، وهو يهيب بنا من ثرى هذه الأرض أن هبوا للقتال . فلنخرج إلى ميدان المعركة نحن ومحررونا معاً ، ومن الله النجاة ، فاشتدوا وتشجعوا .

وكاتب هذه السطور الملتهبة ، التى يقدس فيها دماء الانجليز ، هو نفسه الذى جمع من حوله كل المتعصبين المتطرفين من اليهود ، وقد استقروا فى فلسطين تحت الراية البريطانية ، فأهدر لهم دم الانجليز ، وأمرهم بقتلهم هم والعرب سواء بسواء ، ولكن بين الموقفين كانت أحداث وأحداث .

(١) بهذه الجملة تبدأ الصلاة عند اليهود ، واستعملها صاحبنا هنا لمزيد من التأثير النفسى .

فى شهر فبراير سنة ١٩١٨ وصل الطابور الأول من فرقة اليهود هذه إلى فلسطين تحت قيادة الكولونيل پاترسون . وما إن خطت أقدامهم الحدود حتى رفعوا الراية الصهيونية ذات النجمة السداسية ، وقد كتبوا عليها « إن نسيتك يا أورشليم فلتتركنى يمينى » وهى آية من المزمور رقم ١٣٧ من مزامير داود – وهذا المزمور بالذات ليس لداود على التحقيق ويرجع تاريخه إلى ما بعد داود بنحو خمسمائة سنة ، حيث كان اليهود القدماء يبكون به وهم فى أسر بختنصر بأرض بابل ، ويحنون إلى صهيون ، وقد جعله هرتسل شعاراً ونشيداً يجمع به الصهاينة من كل مكان .

وشاءت الظروف فى نفس تلك الفترة الحرجة من تاريخ العالم أن تتحرك قوة أخرى لها وزنها الهائل فى الصراع الدولى عموماً وفى نشأة ولة إسرائيل بوجه خاص ، وهى الشيوعية العالمية ، فقد وجدت الفلسفة المادية الجدلية التى أقام بناءها « كارل ماركس » و « فردريك انجلز » ، وفسرا بها تطور البشرية عبر التاريخ ، أرضاً خصبة فى روسيا التى كان شعبها يرزح تحت أثقال قيصرية متجمدة لا تريد أن تساير الزمن ، ووجد الشباب فى المدن الروسية بريقاً أخاذاً لهذه الفلسفة الجديدة ، وجدوا فيها ما يشفى حقدهم على الإقطاع لأنها تقول بشيوعية الممتلكات ، وتحريم الملكية الخاصة ، ووجدوا فيها راحة لأنفسهم من الكبت والتقييد الذى كانوا يتعرضون له باسم الدين مطبقاً على يد الكنيسة الروسية الأرثوذكسية الممالئة للقيصر وللإقطاع ، فالماركسية فلسفة علمانية إلحادية تتنكر للكهنوت كما تتنكر للرأسمالية والإقطاع وحول هذا توابل ومشهيات أخرى من العدالة الاجتماعية ، والسلام

العالمى والنهائى ، والحرية الكاملة لأبناء البشر جميعاً ، والعجيب أنه فى نفس الوقت الذى يحمل فيه يهود أوربا الغربية وأمريكا لواء الرأسمالية والاستعمار والامبريالية ، حمل اليهود الروس فى أوربا الشرقية لواء الماركسية الشيوعية ، وتمت ثورة أكتوبر سنة ١٩١٧ التى أطاحت بالحكم القيصرى ، وأقامت الاتحاد السوفيتى مكانه ، وفى أثنائها فوجىء الشعب الروسى بالكثرة المذهلة من اليهود الذين قفزوا إلى الصفوف الأولى من ثورتهم الشعبية ، الأمر الذى جعل الخطوات الأولى لهذه الثورة الشعبية تنزلق إلى ما يشبه الحروب الأهلية فى سبيل تطهير صفوفها من الطفيليات اليهودية العالقة بها ، ولكن بقى الكثير ، والكثير جدًّا ، من بنى إسرائيل فى صفوف الشيوعية الروسية والشيوعية العالمية ، حتى أصبح ذلك وصمة يهاجم بها أعداءُ هذا المذهب خصومهم متهمين إياهم بالتواطؤِ مع اليهودية العالمية أو على الأقل بالغباء والغفلة لدرجة الوقوع فى براثن اليهود .

والذى يهمنا من ذلك كله ، هو الإشارة إلى ذلك الوضع الفريد الممتاز الذى وجد اليهود فيه أنفسهم ، فى نهاية الحرب العالمية الأولى ، فيهود أوربا الغربية وأمريكا يجنون الثمرات السياسية والاقتصادية ، لانتصار كلف غيرهم الملايين من القتلى والجرحى ، ويهود أوربا الشرقية يستغلون الاشتراكية الماركسية ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، إما بإبراز شخصيات صهيونية قيادية ، وإما بتهريب الأموال إلى فلسطين ، وإما باستجداء معونة اليهود الغربيين المالية لتهجير الآف المؤلفة من يهود شرق أوربا إلى فلسطين .

أما ما كان من أمر فلسطين بعد دخول البريطانيين — ومعهم كتيبة المتطوعين اليهود — فإنها بقيت قرابة عام ونصف فى قبضة السلطة العسكرية المطلقة ، فى هذا الوقت كانت أمواج من المهاجرين اليهود من روسيا ورومانيا وبولونيا والمجر والنمسا وغيرها من بلدان أوربا الشرقية تتقاطر مع مجموعات كثيفة من يهود ألمانيا المنهزمة فى الحرب أيضاً ، ولم تكن معاهدة فرساى التى أنهت الحرب العالمية سنة ١٩١٨ قد استطاعت أن تكيف شكل الحكم فى فلسطين ، ولا مصير الناس بها ، كان الانجليز هم ذوو الأمر المطلق ، وبالتبعية كان هذا الأمر المطلق متروكا لليهود ، وأخيراً تجرأت الدول المتحالفة فأعلنت فى مؤتمر « سان ريمو » أنها لن توافق على « احتلال » أو « استعمار » لأى من البلاد التى دخلتها قوات الحلفاء ، نظراً لأن ذلك ينافى « حق تقرير المصير » ، الذى وافقت عليه ، ولأجل ذلك فقد اخترع لفظ اصطلاحى آخر يتستر وراءه الاحتلال والاستعمار ، وهو « الانتداب » وهكذا تقرر فى سان ريمو وضع فلسطين تحت الانتداب البريطانى ، وكان ذلك فى ابريل ١٩٢٠ وقد وافقت « عصبة الأمم » على قرار سان ريمو بعد ذلك بنحو ثلاثة أعوام .

ولسنا بحاجة إلى الإشارة إلى التعاون الوثيق الذى كان بين اليهود والانجليز فى فلسطين ، بل الذى تعدى فلسطين ليكون تحالفاً بين الطرفين على السيطرة على مقدرات البلاد والعباد فى كل مكان فى الشرق الأوسط ، وبخاصة فى مصر والعراق ، حيث كان اليهود من أقرب المقربين إلى الهيئة الحاكمة ، وإلى السلطات البريطانية التى وضعتها فى الحكم . وكانت المساعدات المالية والسياسية تصل باستمرار من

يهود مصر والعراق إلى المشروع الصهيونى فى فلسطين، كل هذا والاستعمار البريطانى مسرور كل السرور لأنه وجد غنيمة باردة ، وأرضاً خصبة يسرح فيها ويمرح ، وشاءت له ظروفه الحسنة أن تصل معه كلاب الحراسة أيضاً ممثلة فى هؤلاء اليهود من أتباع - الصهيونية .

لذلك لم تأل انجلترا جهداً فى سبيل تهيئة الظروف المناسبة لها ، بل راحت تقمع العرب بكل شدة وقسوة إذا هم أبدوا بعض القلق على مصيرهم فى وطنهم ، أو ثاروالما يرونه من اغتصاب اليهود لقطع من هذا الوطن هنا وهناك . هكذا ضربتهم بريطانيا سنة ١٩٢٠ وسنة ١٩٢١ وسنة ١٩٢٩ . . الخ . وفى الجهة الأخرى نراها تعين يهودياً بريطانياً صهيونياً ليكون المندوب السامى الأول لصاحب الجلالة ملك بريطانيا فى فلسطين ، وكان هذا الرجل هو السير هربرت صمويل ، الذى نال لقب لورد فيما بعد ، لقد سمع يهود الغرب بهذا النبأ فرقصوا فرحاً ، وعانق بعضهم بعضاً ، وذهبوا فى السنة التالية يحجون إلى فلسطين ، ليروا اليهود هناك يتزعمهم حاكم يهودى ، وهو أمر لم يحدث لهم منذ نحو من ألفى سنة .

ولا يستطيع الباحث فى ثنايا تاريخ الحرب العظمى ، والثورة الشيوعية الروسية بالنسبة لليهود ، أن يغفل اعتبارات أخرى لعبت دوراً أساسياً فى تمكين الصهيونية من اغتصاب فلسطين واحتلالها .

فعلى أثر انفجار الثورة الشيوعية فى روسيا ، فى أكتوبر سنة ١٩١٧ بدأت شعوب كاملة كانت مستعبدة للتاج القيصرى تنفصل عن روسيا وتعلن استقلالها ، وفى مقدمة هؤلاء بولونيا التى أعلنت نفسها جمهورية

حرة ذات سيادة ، وأقرت الدول الأوربية بذلك، والذى يعنينا من تلك الظاهرة هو أن روسيا القيصرية بحدودها القديمة كانت تضم الجزء الأكبر من يهود أوربا ، إذ كان عدد اليهود الخاضعين لسلطان القيصر يزيد على ستة ملايين ، ولما حدث هذا التفتت فى الممتلكات القيصرية ، هبط عدد اليهود الداخلين فى حدود الحكومة الثورية الشيوعية الجديدة إلى النصف ، بينما ظل النصف الآخر يعيش وسط شعوب ناشئة وحديثة الاستقلال ، وهذه الظروف هيأت لكلا الشطرين من اليهود فى داخل روسيا وخارجها ، فرصاً للنشاط السياسى العنصرى ، ولخلق ولاء قومى يهودى لا يعبأ بالحدود ولا القوانين ولا الأوطان ، وكان ذلك مما أعطى دفعة قوية للصهيونية .

وعلى أثر انتهاء الحرب العالمية الأولى فى نوفمبر سنة ١٩١٨ ، وفى أثناء محادثات السلام فى باريس قام المؤرخ والدبلوماسى اليهودى لوسيان وولف (١٨٥٧ — ١٩٣٠) بإثارة موضوع لم يكن فى الحسبان ، وطرحه على بساط البحث فى المجتمع الدولى ، وهو موضوع « الأقليات » وكانت الخدعة السياسية هنا تتنكر فى زى إنسانى رفيع ، هو المطالبة بحماية الأقليات وضمان أمنهم ومساواتهم فى الفرص والحقوق المدنية ، بغض النظر عن أجناسهم أو أديانهم ، وأفلح الرجل فى أن تكون لهذه الأقليات وفود فى المجتمعات الدولية أغلبيتها الساحقة من اليهود ، كما أفلح فى إدخال بنود كاملة لمصلحتهم فى جميع معاهدات الصلح ، وفى دساتير حكومات أوربا الشرقية التى ولدت دولها المستقلة على أثر هذه الحروب العالمية ، وتلك الثورة الروسية ، وفى مقدمة أولئك رومانيا وتشيكوسلوفاكيا والمجر ولتوانيا واستونيا ولاتفيا وبولونيا .

ولكى نستكمل صورة النفوذ اليهودى فى العالم عند بداية تنفيذ المشروع الصهيونى تنفيذاً نشيطاً محموماً مليئاً بالحماس ، ينبغى أن نعرف أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت تضم نحو خمسة ملايين من اليهود ، وقد كانت هجرة يهود أوربا إلى أمريكا بعد اكتشافها تجرى فى نطاق ضيق جدًّا لا يكاد يستحق الذكر ، ذلك أن يهود أسبانيا ، بعد تحطيم الإسلام فى هذه البلاد ، وطرد العرب منها ، قد آثروا أن يهاجروا إلى ما بقى من بلاد المسلمين فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، لما كانوا يلقونه فى ظل الإسلام من تسامح وعدالة وحسن معاملة ، فهاجر كثير منهم إلى بلاد المغرب وشمال أفريقيا ، واتجه آخرون إلى مصر والشام والعراق وتركيا ، وراح بعض اليهود يلتمسون الحياة فى بعض بلدان الساحل الشمالى للبحر الأبيض ، وبخاصة فى البندقية وبعض بلاد البلقان ، ولكن مع ضعف الدولة العثمانية ومع الاضطهاد الدينى والعنصرى الذى كانت تمارسه الأمم المسيحية فى أوربا وأوربا الشرقية على الخصوص ، وبعد دخول العالم المتحضر فى عصر الرأسمالية الصناعية الضخمة ، وازدهار هذه الظاهرة فى أمريكا بالذات ، انطلقت فى القرن التاسع عشر هجرات كثيفة جدًّا من اليهود نحو الولايات المتحدة ، وكانت قد سبقتهم إليها جموع إسرائيلية سيطرت على المال والأعمال بشكل ملحوظ فى هذه البلاد ، وأصبحت نقط ارتكاز لهذه الموجات الجديدة ، ومن أشهر هؤلاء : كُوهَنْ ولُوِينب وشركاؤهما ، وهم من أكبر أصحاب المؤسسات المالية الأمريكية ، ومنهم جَاكُوب شِيف (١٨٤٧ - ١٩٢٠) أحد كبار رجال الأعمال وزعماء المجتمع اليهودى فى أمريكا ، ومنهم ناثان شتراوس

١٨٤٨ ـ ١٩٣١ ، ويقولون : إنه هاجر من أوربا إلى الولايات المتحدة فقيرًا معدماً ، ثم أصبح بسرعة من أصحاب الملايين ويذكرون عنه أنه لم ينس الفقراء بعد أن تضخمت ثروته ، وفى مقدمتهم فقراء اليهود ، الذين عاونهم بالمال والغذاء والكساء ، وكان أخوه أوسكار شتراوس (١٨٤٥ ـ ١٩٢٦) من كبار رجال السياسة الأمريكية ، وصل إلى منصب الوزارة ، كما كان سفيراً للولايات المتحدة فى بلاد كثيرة من العالم منها تركيا ، ويذكر اليهود من الأسماء التى يفخرون بها فى الدنيا الجديدة لويس بَرَانْدَايْس (١٨٥٦ ـ ١٩٤١) وبنيامين كاردُوزو (١٨٧٠ ـ ١٩٣٨) وكانا من أكبر رجال القانون فى البلاد ووصلا إلى رئاسة المحكمة العليا للولايات المتحدة ، وقد خلفهما فى هذا المنصب يهود آخرون ، منهم فليكس فرانكفورتر وأخيراً جولد برج ، الذى كان يمثل أمريكا فى هيئة الأمم المتحدة أثناء الصراع العربى الاسرائيلى ، ومن كبار أغنياء اليهود الأمريكان يوليوس روزنفالد (١٨٦٢ ـ ١٩٣٢) ، ويعتبر من كبار المحسنين والمتبرعين بالمال للمشروعات اليهودية المختلفة ، كما أنه تولى تحسين الوضع الاجتماعى للسود فى أمريكا ، وفى ميدان الفكر السياسى الأمريكى برز من اليهود موريس هيلكويت (١٨٦٩ ـ ١٩٣٣) ويعد من أساطين الاشتراكية الأمريكية ، وصمويل جومبرز (١٨٤٧ ـ ١٩٢١) الذى يرجع إليه الفضل فى قيام الاتحاد الأمريكى للعمال .

وفى نفس تلك الفترة كانت الأسماء اللامعة لليهود ذوى النفوذ تزدحم بعضها إلى جانب بعض ، فاليهودى البريطانى السير جون موناش

(١٨٦٥ ـ ١٩٣١) ، يقود القوات الاسترالية أثناء الحرب العظمى ، ونجد يهودياً بريطانياً آخر يتسلق إلى أسمى المناصب هو « روفوس أيزاكس » (١٨٦٠ ـ ١٩٣٥) الذى رأس محكمة العدل فى انجلترا ووقع عليه الاختيار سفيراً فوق العادة لدى الولايات المتحدة ، ثم عين سنة ١٩٢١ حاكماً عاماً للهند بالنيابة عن صاحب الجلالة البريطانية ، وبقى فى هذا المنصب خمس سنين ،ونستطيع أن نذكر هوجوبروس (١٨٦٠ ـ ١٩٢٥) الذى تولى وزارة الداخلية فى ألمانيا ، وكذلك كورت آيزنر (١٨٦٧ ـ ١٩١٩) رئيس وزراء بافاريا ، وفيكتور آدلر (١٨٥٢ ـ ١٩١٨) وزير خارجية النمسا ، وقد سبقت الإشارة إلى أن أوائل المجالس السوفيتية العليا بعد ثورة أكتوبر كانت يهودية بنسبة عالية جداً .

وهذه الصورة المصغرة جدا لأطراف الأخطبوط الإسرائيلى التى كانت تحكم قبضتها على العالم ، كان يقابلها فى العالم العربى والإسلامى سبات عميق ، فقد أرادت الخلافة العثمانية ألا تنعقد أية صلة بين ممتلكاتها فى بلاد العرب والمسلمين وأوربا ، إلا من خلالها هى ، وتحت رقابتها ، وفى سبيل مصالحها الخاصة وظل الأمر على هذا النحو، لم يخفّ قليلا إلا بعد الهزة العنيفة التى تلقاها الشرق ، ومصر على الخصوص ، على يد نابليون بونابرت ، هنا فقط بدأت بعض الخواطر تتجه إلى أوربا وحضارتها ،لكن كان ذلك فى صغائر الأمور فقط ، أما العصب الأساسى للحضارة الأوربية إذ ذاك ، وهو الإنتاج الصناعى الواسع ، والتجارة العالمية ، وفتح الأسواق ، والتوسع فى إنتاج الخامات فقد

ظل فى المكان الثانى ، وهو أمر مكّن أصحاب المطامع الصهيونية فيما بعد من إقناع القوى الأوربية والأمريكية بأن وجودهم فى المنطقة سيكون خدمة لأهلها ، وسيؤدى إلى إخراجهم من العصور الوسطى إلى العصر الحديث .

والعجيب أن كثيراً من الأوربيين قد خدعوا بهذه القضية الخاطئة الظالمة وراحوا يساعدون على ترويجها بالكتب والمؤلفات والتقارير والمقالات ، ونخص بالذكر منهم ، على سبيل المثال فقط لا لأهمية معينة ، الصحفى الفرنسى ألبير لوندر صاحب كتاب « اليهودى التائه رجع » وهو مجموعة مقالات يشيد فيها سنة ١٩٢٩ بالجهود الصهيونية فى التعمير والإنشاء فى فلسطين ، وسط مجتمع من الجلابيب والطرابيش والقهاوى الحافلة بالمدخنين فى النرجيلة .

كان الغرب يظلم العرب والمسلمين ، إمّا عمداً ولحاجة فى نفس يعقوب ، وإمّا لأنه مخدوع بالدعاية اليهودية الصهيونية ، ومع ذلك فقد كانت هناك أصوات شرقية وعربية تنبعث بين الحين والحين معبرة عن رفض المخطط الصهيونى منذ البداية ، ولكن كان ينقصها التنسيق ، كما كانت تعوزها وسائل الانتشار بين الجماهير ، لقد قام فى مقدمة هذه الأصوات فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن العشرين ، أى مع بداية الحركة الصهيونية تماماً ، كاتب عربى مسيحى من فلسطين هو نجيب عازورى ، الذى كان فى وقت ما نائباً

للمحافظ التركى لمدينة القدس ، وطلب من السلطات التركية على أثر المؤتمر الصهيونى الأول مجموعة من التنظيمات المناسبة للموقف الجديد ، وأهمها :

١ ــ الحد من الهجرة اليهودية إلى فلسطين .

٢ ــ الرقابة الشديدة على امتلاك الأراضى أو استثمار الأموال بواسطة اليهود .

٣ ــ السماح للقومية العربية بالتعبير عن نفسها بحرية فى المجتمعات الدولية .

٤ ــ تحسين حالة المواطن العربى الفلسطينى من الناحية الاقتصادية والحضارية .

٥ ــ إعطاء الخطر اليهودى على الشرق الأوسط ، وعلى السلام العالمى ، ما يجب من الأهمية .

وبالطبع لقى هذا الرجل عنتاً شديداً من السلطات التركية التى اتهمته بالفوضوية ومحاولة تأليب الأقليات الدينية والعنصرية فى داخل الخلافة العثمانية ، فلم يسعه إلا أن يهاجر إلى أوربا ليستمر فى دعوته ضد الخطر اليهودى ، وليعقد الصلة بين المصالح الصهيونية والمصالح الاستعمارية ، وفى باريس أسس « رابطة الوطن العربى » ونشر فى بداية عام ١٩٠٥ كتاباً باللغة الفرنسية على أكبر جانب من الأهمية جعل عنوانه : « يقظة الأمة العربية » ، والكتاب يعتبر وثيقة تاريخية تثبت أن الضمير العربى لم يكن فى غيبوبة تامة إبان تفسخ الامبراطورية العثمانية ، وتحفز الصهيونية والاستعمار ، فقد قسمه مؤلفه بعد تصدير

ومقدمة قصيرة إلى تسعة أبواب : جعل الأول منها فى وصف فلسطين جغرافياً واقتصادياً واجتماعياً ، والتنبيه إلى الأوضاع الخطيرة التى أدى إليها فساد أجهزة الحكم ، وضعف الرقابة عليه فى هذه البلاد ، مما عرضها للمطامع اليهودية والمؤامرات الاستعمارية .

وتتابعت الأبواب بعد ذلك لبيان ألاعيب السياسات الأجنبية فى فلسطين ومنطقة الشرق الأوسط كلها ، فتناول بالتحليل موقف كل من روسيا ، وفرنسا ، وألمانيا ، والنمسا ، وإيطاليا ، والولايات المتحدة والفاتيكان ، ثم ختم ذلك كله بتشريح موقف السلطنة العثمانية ، وبين خطر الاستعمار والصهيونية الذى يتهدد فلسطين .

فهذه ضجة عربية مبكرة جداً ، خنقت فى مهدها ، لأنها كانت وحيدة فى الميدان ، ولأنها لم تعرف تماماً إلى أين تتجه ، ولكنها على كل حال صيحة رفض ، صريحة فى إبائها ، علمية دقيقة فى تشريحها وتحليلها لمصادر الشكوى ، وقد أعلن نفس المؤلف عن ثلاثة كتب أخرى يقوم بإعدادها ، عنوان أحدها « الوطن العربى » ، وهو كما يقول دراسة متعمقة للوضع الحالى للبلاد العربية وتصوير لمستقبلها ، أما الكتاب الثانى فعنوانه « الخطر اليهودى العالمى » ، وهو توجيهات ودراسات سياسية ، وثالث هذه الكتب عنوانه « القوى الأجنبية ومشكلة الأرض المقدسة » ، وقد حاولنا التحقق من نجاح نجيب عازورى فى نشر هذه الكتب ، ولكننا لم نستطع الحصول على ما يثبت ظهورها . بل أن كتابه الأول الذى أشرنا إليه وإلى موضوعه وأبوابه قد اختفى إلا النادر من النسخ فى بعض المكتبات ، ونحن نعلم أن

اليهود مشهورون فى العالم كله بتدمير كل كتاب يحاول أن يفضح مؤامراتهم .

ولعلنا نستطيع الآن أن نتصور الدوامات الرهيبة التى دارت فيها فلسطين مع ظهور الصهيونية، واتحاد أهدافها مع أهداف الاستعمار فقد عاش اليهود فى ظل الانتداب البريطانى، مفروضين بالقوة على عرب فلسطين .

وعادت الثورة العربية تندلع من جديد فى وجه الهجرات اليهودية الضخمة سنة ١٩٣٦ ، وفى هذه المرة كان الدافع لهذه الهجرات هو نجاح الحزب النازى فى ألمانيا بزعامة أدولف هتلر فى الوصول إلى الحكم ، ثم تكوين حلف بين هذه النازية الألمانية والفاشية الإيطالية التى كان يقودها بنيتو موسولينى .

كانت ألمانيا ما تزال تطوى ضلوعها على رغبة قوية فى الانتقام لهزيمتها المريرة سنة ١٩١٨ ، وكانت إيطاليا تحلم بالامبراطورية الرومانية القديمة ، لتحقيق سيادة شعبها على البحر الأبيض المتوسط ، وكانت كلتا الدولتين تحقدان على انجلترا وفرنسا لاستئثارهما بنصيب الأسد فى الاستعمار فى آسيا وإفريقيا ، ولإغلاقهما الأسواق وموارد الثروة الطبيعية مما وضع الألمان والإيطاليين فى حالة شديدة من الضيق المالى وانخفاض مستوى المعيشة، وكانت ألمانيا بالذات لا تنسى لليهود الألمان جرائم رهيبة فى التجسس ، والتلاعب بالاقتصاد الألمانى ، وتهريب أسرار الأسلحة والمعدات الحربية الجديدة إلى انجلترا فى أواخر الحرب العالمية الأولى ، مما كان له أكبر الأثر فى الهزيمة التى لحقت بها ، وكان حاييم وايزمان نفسه فى مقدمة المتهمين .

ورأى الألمان النازيون أن يحاربوا اليهود بنفس السلاح القديم الذى اخترعه اليهود لأنفسهم وهو العصبية العنصرية ، فبنى مفكروهم فلسفة أساسها العصبية للجنس الجرمانى الآرى ، باعتباره سيد الأجناس جميعاً ، وجعلوا الجنس اليهودى فى تصنيفهم العنصرى من أحقر وأقذر الأجناس التى تعيش على هذه الأرض ، وانطلاقاً من هذه الفلسفة تتابعت تشريعات التفرقة العنصرية ، ومخططات اضطهاد اليهود والتضييق عليهم تمهيداً لمحاولة إبادتهم نهائياً ، فأصيب اليهود بذعر شديد ، وبدأ الكثيرون منهم يفكرون فى النجاة بأنفسهم ، وتنبهت « الوكالة اليهودية » فى تل أبيب ، التى كانت تمارس نشاطها منذ عام ١٩٢٩ بزعامة دافيد بن جوريون لهذا الأمر ، كما تنبهت له الصهيونية العالمية كلها ، وبدأ تشجيع الهجرة يأخذ شكلا منهجياً واضحاً ، ومحدداً ، نحو فلسطين بالذات .

وإزاء هذا الوضع ثار عرب فلسطين كما قلنا ، وحاول الانجليز مستعينين بالشرطة اليهودية فى فلسطين ، وببعض المنظمات الإرهابية الصهيونية ، كبح جماح هذه الثورة ، ولكن بدون جدوى ، وأخيراً لجأ الانجليز إلى طريقتهم التقليدية فى تمييع الموقف ، وتنويم الثائرين فأرسلت انجلترا لجنة ملكية لتقصى الحقائق سنة ١٩٣٧ ، وتفتقت قريحة هذه اللجنة عن : « مشروع تقسيم » لفلسطين بين العرب واليهود ، حاز موافقة الأغلبية من أعضائها فقط وخلاصة هذا المشروع هو جعل فلسطين إقليمين منفصلين متميزين أحدهما لليهود والآخر للعرب ، ورأت هذه اللجنة أن تكون هناك فترة انتقالية لتهيئة تنفيذ

المشروع مدتها سنتان يتم فى أثنائهما تهجير عدد جديد من اليهود حدوده بمائة وخمسين ألفاً ، وقد جعلت هذه اللجنة الإقليم اليهودى يحتوى على مرج ابن عامر بسهول يزرعيل ، ومنطقة الجليل الشرقى وكذلك الساحل الفلسطينى من حيفا إلى تل أبيب ، يضاف إلى ذلك منطقة النقب على الحدود المصرية ، أما القدس فقد رأت هذه اللجنة أن تشرف على إدارتها وكالة دولية ، بينما تؤول مناطق الجليل الغربى ومرتفعات نابلس وطولكرم ورام الله وقلقيلية ، وكذلك منطقة يافا وبيت لحم والخليل وغزة ، إلى العرب .

وقد تكرر هذا الحل مرة أخرى فى نوفمبر سنة ١٩٤٥ عندما اقترحه السياسى البريطانى « بيفين » ، وقد كان ذلك أيضاً على أثر اضطرابات شديدة جداً نشبت بين العرب واليهود فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وكان العرب قد طالبوا انجلترا بتطبيق نصوص الكتاب الأبيض الصادر عام ١٩٣٩ والذى كان يقضى بجعل مناطق من الأرض الفلسطينية « محظورة » بالنسبة للاستيطان الصهيونى ، طبقاً لاقتراحات لجنة التقسيم السالفة الذكر ، كما كان يقول بوقف هجرة اليهود إلى فلسطين بمجرد وصول عدد هؤلاء المهاجرين إلى نسبة معينة من مجموع السكان .

وإذا كانت اللجنة الملكية البريطانية التى أعدت تقريرها سنة ١٩٣٧ ، قد بذلت جهداً مخلصاً فى محاباة اليهود ، والمساس الصارخ بأوضاع سكان فلسطين الأصليين ، مخالفة بذلك تعهدات انجلترا فى تصريح بلفور ، فإنها كانت على الأقل صريحة ، وواضحة وواقعية .

لأن الامبراطورية البريطانية إذ ذاك ، على الرغم من كثرة مشاكلها ، كانت بعد قوية يحسب حسابها فى العالم أجمع ، أما فى أيام بيفين ، فقد كانت الحرب العالمية الثانية بكل ضراوتها ، وبكل المشاكل الجسيمة التى خلفتها فى المجتمع البريطانى ، وكل الأزمات السياسية التى ولدتها رغبة المستعمرات فى التحرر قد أطاحت بالهيبة البريطانية ، فأصبحت هذه الدولة من دول الصف الثانى فى المجتمع العالمى ، وبدأ الطموح الأمريكى يبسط نفوذه ، ويسعى إلى وراثة ما كان للانجليز والفرنسيين من سلطان على العالم ، وكان سعى الأمريكان إلى ذلك مضمون النجاح ، لأن الولايات المتحدة كانت فى تلك الفترة تكاد تعول الشعبين الانجليزى والفرنسى ، مع من كانت تعوله من بلاد أوربا التى أنهكتها الحرب ، ومن جهة أخرى فإن روسيا السوفيتية ، بعد أن تحملت مسئوليات هائلة فى النضال العالمى من أجل القضاء على النازية ، قد بدأت هى أيضاً تقلم أظافر الاستعمار القديم ، وتدخل فى تقرير مصير العالم من أوسع الأبواب .

لكل تلك الأسباب كان حتما على بريطانيا أن تغير سياستها المبنية على القوة والوضوح ، وأن تلجأ إلى سياسة الضعف ، وهى سياسة المراوغة والنفاق وهكذا نلاحظ أنها فى تلك الفترة كانت بمشروع بيفين تمالئ اليهود فى فلسطين ، بينما كانت من جهة أخرى تشجع قيام جامعة الدول العربية ، وتحاول سياسة الملاينة إلى حد كبير إزاء المطالب القومية للعالم العربى . ومن هنا كان مشروع بيفين مقضياً عليه بالفشل منذ ولادته . فلا اليهود قنعوا به ، ولا العرب رضوا عنه ، ولا استطاعت

انجلترا أن تقف بين الطرفين موقف الحكم المسموع الكلمة المرهوب الجانب . وقد كان الجديد فى مشروع بيفين هو مد مناطق الاستيطان اليهودى حتى تقع فى قلبها مدينة القدس نفسها ، وهو تخطيط خبيث جعل مستقبل هذه البلدة المقدسة حتى الآن مظلماً محفوفاً بالأخطار .

وقد صحب ذلك ، بالرغم من قيام جامعة الدول العربية ، اختلاف شديد ومنافسات حادة بين الحكام والزعماء العرب ، كما صحبه تمزق وتفرق فى الرأى العام للجماهير العربية نفسها ، وتفاوت شديد فى مستويات المعيشة والثقافة ونظام المجتمع فى مختلف البلاد العربية . وهكذا لم يستطع زعيم واحد أن يتحدث باسم العرب جميعاً ، بل لم يستطع زعيم واحد أن يتحدث باسم فلسطين العربية دون أن تثور فى وجهه المعارضات ، وتكال له الاتهامات ، وتقام فى وجهه العراقيل والعقبات . ولم يستطع العرب أن يستغلوا ظرف ما بعد الحرب ، على الرغم من أنهم قدموا للحلفاء المنتصرين على ألمانيا من التسهيلات والخدمات طوال مدة الحرب ما لم يجرؤ أحد حتى الآن على تقديم كشف حساب عنه . فالطرق ووسائل المواصلات والموانى والمطارات كانت كلها موضوعة فى العالم العربى كله فى خدمة الدول المحاربة للنازية . والبترول العربى كله كان وقفاً على الاحتياجات العسكرية فى ذات الوقت ، بحيث كان يصرف للمواطنين العرب للأغراض المنزلية بكميات ضئيلة جداً وبالبطاقات .

وكانت جيوش عربية فى الأردن والعراق وفلسطين تشترك فى المعارك تحت قيادة بريطانية سافرة أو مقنعة . بل كانت القوات

العسكرية المصرية نفسها تقوم بأعمال الدفاع الجوى عن الموانئ والمطارات ومخازن التموين والنقط الاستراتيجية للمواصلات واللاسلكى والرادار لصالح الحلفاء . وكانت الجيوش البريطانية والأمريكية وجيوش فرنسا الحرة التى يتزعمها الجنرال ديجول ، تحصل على أكبر جانب من تموينها بالغذاء والكساء من منتجات العالم العربى وخاصة فى مصر والسودان والعراق . كل هذا ذهب هدراً لأن الساسة العرب لم يطالبوا بثمنه ، ولم يكن بينهم من أوتى من اللباقة وشدة المراس ما يمكنه من الإفصاح بحجة هذه الشعوب العربية ، وفضلها فى وصول الحلفاء إلى النصر النهائى .

فى نفس هذا الوقت كانت الصفوف اليهودية ملتئمة . وكان لليهود متطوعون فى الجيوش الحليفة ، جعلوا منهم على قلة عددهم وتفاهة الدور الذى أعطى لهم فى الحرب أبطالا ، وصناعاً للنصر ، ودعامة من دعائم العسكرية المتحالفة التى قضت على الهتلرية . وأدهى من ذلك وأمر ، أن هؤلاء المتطوعين اليهود كانوا يعتمدون على منتجات العرب فى غذائهم ، وكسائهم وتموينهم ، كما كانت بلاد العرب من أقصاها إلى أقصاها مفتوحة لهم ، يتعرفون عليها ، ويدرسونها ، ويرسمون خرائطها الجغرافية والعسكرية ، ويدرسون مشاكلها ، وأحوال المجتمع فيها ، كل ذلك بتوجيه من الوكالة اليهودية ، والهيئات الصهيونية العالمية ، والمنظمات العسكرية السرية لليهود فى فلسطين ، وشبكات الجاسوسية اليهودية المنشورة فى العالم كله .

كانت الفرقة اليهودية إذن ورقة يلعب بها اليهود على العرب والحلفاء جميعاً فى زمن الحرب وما بعد الحرب . وكانت هناك إلى جانبها ورقة صهيونية أخرى استغلتها الهيئات الاسرائيلية لصالحها أحسن استغلال وهى اللاسامية « أو معاداة اليهود » فما إن أطاحت الحرب بالهتلرية ، حتى هب اليهود فى جميع أنحاء العالم يخططون بنجاح للسيطرة على الجانب الأعظم من وسائل الإعلام والدعاية والرقابة .

واجتمعت لهم فى فرنسا ، وانجلترا ، وأمريكا ، واستراليا ، وكندا ، والأرجنتين ، والبرازيل ، وفى كثير من بلدان الشرق الأقصى ، وأفريقيا ، إمكانيات فى الصحافة ، والإذاعة ، والتليفزيون ، والنشر لعلها لم تجتمع لأحد غيرهم على طول تاريخ البشر .

وانطلقت هذه الأبواق كلها تحت ستار نشر الفظائع والفضائح النازية ، تصور للعالم أن اللاسامية « الهتلرية » هى التى أقامت الحرب . وأن اليهود أمة شهيدة ، تحملت وحدها كل مصائب الهتلرية وكل ويلات الحرب .

وانتقلوا من هذه الخطوة إلى خطوة أخرى جعلوا فيها من «اللاسامية الهتلرية » قضية قانونية بين الشعب الألمانى بأسره والأمة اليهودية ممثلة — ولا ندرى لماذا — فى الوجود الصهيونى بفلسطين . وجازت الخدعة على العالم كله ، واستقر فى عقله الباطن أن الصهيونية فى فلسطين وجود حتمى وشرعى ، وأن دافيد بن جوريون وحاييم وايزمان عندهما ما يشبه التفويض الإلهى للتحدث باسم اليهود جميعاً ، الأحياء منهم والأموات . وكان الأموات بالنسبة للمطامع الصهيونية أهم من

الأحياء ، لأنهم طلبوا من سلطات الاحتلال الحليفة فى ألمانيا أن تبدأ بتعقب من له أدنى صلة باللاسامية من الألمان ، ومحاكمته وإعدامه ، أو الزج به فى أعماق السجون مدى الحياة .

أما من استطاع الهروب من هؤلاء فقد أطلقت الصهيونية على أثره من يقتله حيث وجد ، أو من يحمله إلى تل أبيب لتقام له هناك محاكمات هدفها الدعاية والتلويح بالمقدرة الإسرائيلية على صنع المستحيل ، وكان من أشهر ذلك اختطاف السفاح الهتلرى إيخمان من أمريكا الجنوبية ومحاكمته فى إسرائيل ، وتنفيذ حكم الإعدام فيه بعد سقوط الهتلرية بعشرين عاماً . ولم تكتف الصهيونية بذلك بل طالبت ألمانيا بالتعويضات .

وفرضت على شعبها غرامات باهظة تقدر بآلاف الملايين من الدولارات ، ظلت ألمانيا تؤديها لإسرائيل على مدى عشرين عامًا ، وكانت إسرائيل هى التى تحدد طريقة الأداء ونوع المدفوعات ، وكانت فى أغلب الأوقات من الأسلحة والمواد الحربية التى استعملتها إسرائيل فى قتل العرب وتشريدهم واغتصاب مساكنهم ، كل هذا ، وغيره من ألوان الظلم والاضطهاد والقتل والإجرام على روح ضحايا هتلر من اليهود .

واستعمل اليهود تهمة اللاسامية ، بعد الحرب الثانية ، وبعد أن صارت بفضل الهتلرية من أبشع الجرائم وأشدها عاراً على مرتكبيها ، استعملوها وسيلة للإرهاب السياسى فى كل مكان ، أسقطوا بها وزراء فى جميع أنحاء العالم ، وكتلوا بها اليهود ومن يستفيدون منهم فى تكتلات سياسية هدامة ، من أشهرها التكتلات الشيوعية فى العالم

العربى بعد الحرب العالمية الثانية . ولم يتورع المكر اليهودى عن اختلاق تهم اللاسامية وإلصاقها بالأبرياء ، فنى انجلترا أوفرنسا أوألمانيا أو أمريكا أو غيرها من بلدان العالم ، لا يكاد يظهر زعيم سياسى لا يرضى عنه اليهود ، حتى تبدأ حرب الإشاعات ، فإذا لم تفد فى هدمه ، وضع اليهود بأيديهم بعض المتفجرات بجانب معابدهم فى هذا البلد ورسموا على جدرنها الصليب الهتلرى المعقوف وتركوا بعض المنشورات النازية المزورة ليوهموا الجماهير أن الحركة الجديدة غير المأجورة للمصالح الصهيونية حركة نازية تهدد السلام والإنسانية .

ومن ذلك كله نرى أن أبعاد التآمر الصهيونى فى أعقاب الحرب العالمية الثانية كانت قد تجاوزت طاقة بريطانيا السياسية ، وكانت قد ذهبت وأوغلت بعيداً جداً حيث لا يستطيع الصوت العربى ولا الحق العربى أن يكون مسموعاً أو ملحوظاً .

وفى داخل فلسطين نفسها بدأ قادة الصهيونية ينظمون قواهم العسكرية تحت سمع الانجليز وبصرهم ، وفى مقدمتها المنظمة العسكرية الوطنية « أرجون صبائى لئومى » ومنظمة المحاربين لأجل حرية إسرائيل « لوحمى حيروت إسرائيل » التى اشتهرت باسم « جماعة شتيرن » وجماعة « الدفاع أوهاجاناه » وهى كلها مجموعات منبثقة فلسفياً من تعاليم أئمة الارهاب الصهيونى الأول ، وفى مقدمتهم أستاذ هذا الاتجاه « جابوتنسكى » الذى وضع الأساس مع « ترومبلدور » فى الحرب العالمية الأولى كما ذكرنا . بل ربما كانت جذور هذه العصابات العسكرية ترجع إلى ما قبل ذلك . فنى عام ١٩٠٥ ، وكانت الشيوعية تعمل

سراً فى روسيا القيصرية حدث صدام بين رجالها وبين القيصرية ، وكان فى هؤلاء الشيوعيين الأُول عدد كبير من اليهود الروس والبولونيين الذين يتدربون على أعمال التخريب والمقاومة وحمل السلاح . فلما فشلت حركتهم فى روسيا سنة ١٩٠٥ هاجر عدد كبير منهم إلى فلسطين .

وما أن وصلوا إليها حتى اصطدموا بمقاومة عربية للاستقرار الصهيونى فى تلك البلاد . فألفوا سنة ١٩٠٧ منظمة سرية عسكرية إرهابية ، كان أهم أهدافها القيام بحملات انتقامية تأديبية دامية ضد عرب فلسطين ، كلما أبدوا معارضة للصهيونية . وأطلقوا على هذه المنظمة اسم منظمة « برجيورا » إحياءً لذكرى المحارب اليهودى القديم « شمعون برجيورا » الذى كان قد اشترك فى قتال الرومان فى فلسطين ، فى الحوادث التى تم فيها تخريب الهيكل اليهودى الثانى سنة ٧٠ ميلادية ، على يد الامبراطور فسبازيان وابنه تيتوس ، وكانت هذه المنظمة تضم فى البداية ثلاثة وعشرين صهيونياً ، من بينهم « اسحق بن صبى » الذى عاش إلى أن تولى رئاسة دولة إسرائيل ، بعد موت حاييم وايزمان وقبل رئيسها الحالى « زالمان شازار » ، وكان شعار هذه المنظمة : « بالدم والنار سقطت دولة اليهود ، وبالدم والنار ستقوم من جديد » وقد تحولت هذه المنظمة فى ظل صهيونية ما بعد تصريح بلفور إلى الحزب الصهيونى المعروف « هشومير » وعلى الرغم من هذا الوضع غير المتكافىء بين الأُمة العربية الفلسطينية الصغيرة المتخلفة ، المعزولة بفضل السياسات الاستعمارية عن الرأى العام العربى والإسلامى ، وعن المجتمع

الدولى الكبير وبين صهيونية متحفزة منظمة ، تساندها خلفيات مالية واقتصادية وسياسية رهيبة ، فقد واصل العرب كفاحهم اليائس ، ووقف النفاق البريطانى بين الطرفين ليكرس الانتصارات اليهودية ، حتى إذا ما شعرت الصهيونية بأن بريطانيا لم يعد لها مستقبل فى المنطقة ، وأن الصهيونية العالمية لم تعد تستظل بالراية الانجليزية ولا تحتاج إليها ، قام الزعماء اليهود يدعون إلى مقاومة الانجليز بنفس الصرامة التى يقاومون بها العرب . ووجد دهاة البريطانيين أن الفرصة قد سنحت لخلق وضع عسكرى وسياسى قلق فى هذه المنطقة ، لا يسمح لمستعمر آخر ، ولا لصاحب مطامع فى هذه الجهات أن ينعم بالأمن والاستقرار ، فقرروا الانسحاب من فلسطين ، ووافقوا على أن يتركوا هذه البلاد فى رعاية الأمم المتحدة .

وهذا هو الباعث المباشر لصدور قرار التقسيم من الأمم المتحدة فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ . وما أن أذيع القرار حتى بدأت الدول العربية تعارض فيه بطريقة لا نظام فيها ولا حرص ولا استعداد .

وراح اليهود كدأبهم القديم يصرخون ويولولون ، ويعلنون فى العالم أجمع أنهم معرضون للإبادة فى القدس وتل أبيب والكرمل وكل مكان لجأوا إليه من فلسطين ، بأسلحة الجموع العربية السائبة غير المنظمة ولا المسئولة ، وبالطبع كانت هذه فرية من صنع اليهود ، دبروا من أجل رواجها وقبولها فى العالم بعض تحرشات مفتعلة ، وحوادث فردية ، طلبوا لها وزمروا ، وأقاموا بها الدنيا وأقعدوها .

ونجح اليهود فى أن يجعلوا من مجتمعهم موضع عطف من عالم يجهل كل مخططهم ، كما نجحوا فى أن تتدفق إليهم الأموال والأسلحة والمؤن . وأن يفد إليهم مهاجرون جدد من اليهود الذين تمرسوا بفنون القتال العسكرى الرسمى فى جيوش الحلفاء وبأساليب الاغتيال والنسف والإرهاب فى حرب العصابات ضد الهتلرية فى أوربا .

وفى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ انسحب الانجليز من فلسطين . وتصادف أن كان هذا اليوم يوم السبت وهو العطلة الإجبارية الدينية لليهود . ولكن الصهيونية لم تترك الوقت يضيع ، إذ قام دافيد بن جوريون رئيس اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية بدعوة الزعماء اليهود للاجتماع فى تل أبيب بعد ظهر يوم الجمعة ١٤ مايو سنة ١٩٤٨ ليعلن أنه ابتداء من منتصف هذه الليلة بالذات تقوم فى فلسطين دولة لليهود اسمها « إسرائيل » كما تم ترشيح حاييم وايزمان ليكون أول رئيس لهذه الدولة . وقد تم انتخابه ، ثم احتفلت الصهيونية بتوليه سلطاته السياسية ، وتلاوته ليمين الولاء للدولة وللأمة اليهودية ، فى ٢٧ يناير سنة ١٩٤٩ وبين هذين التاريخين تتابعت الأحداث، مشت الجيوش العربية من العراق والأردن ومصر فى اتجاه تل أبيب . ولكن التكتيك اليهودى كان قد لجأ إلى وسيلة فعالة لعرقلة تحرك هذه الجيوش ، إذ راح يمارس إرهاباً وحشياً منقطع النظير على الجماهير من عرب فلسطين ، حتى نشر بينهم الرعب والفزع بما ارتكبه من المجازر وأعمال النسف والتدمير والإجلاء الجماعى من المدن والقرى الفلسطينية .

كما احتلت القوات المسلحة الاسرائيلية المواقع الاستراتيجية التى كان يشغلها الانجليز . فوجد الجنود العرب أنفسهم يخوضون معركة مرتجلة ، بأسلحة قديمة أو فاسدة فى معظم الأحيان ، وتحت قيادات جاهلة أو خائنة متواطئة مع الاستعمار ، لا ترى إلا مصالحها الطبقية وأهدافها فى البقاء فى الحكم والسيطرة على المزيد من الثروة . وبالرغم من ذلك كله فقد أبلى الجندى العربى فى هذه المعارك بلاءً حسناً وحقق ما طلب منه تحقيقه من مهام القتال فى أكثر من جبهة . ولعل ذلك نفسه هو الذى أثار مخاوف الزعماء والحكام العرب المتخلفين ، فتضافرت المناورات السياسية من جانب الانجليز الموجودين فى كثير من بلدان العالم العربى وهيئة الأمم المتحدة الواقعة تحت تأثير يهودى يتوارى فى كواليس السياسة الأمريكية المسيطرة على المجتمع الدولى . وأحلام رومانسية شيوعية واشتراكية خدعت فيها السياسة الروسية فى ظل ستالين ، وقادتها بعمد وإصرار حكومة اشتراكية فى فرنسا يتزعمها اليهودى « ليون بلوم » بالاشتراك مع مساعدة « جول موك » وزير الداخلية الفرنسى اليهودى الصهيونى ومندوب فرنسا فى معظم المؤتمرات الدولية فى ذلك الوقت .

ومن ورائهما شخصيات كثيرة يهودية منها « مارسيل داسوا » النائب الفرنسى صاحب مصانع الطائرات الحربية « مستير » و « ميراج » كما تحركت الدعاية الصحفية والإذاعية فى كل أرجاء العالم ، تؤيد الحق اليهودى فى فلسطين ، وتشيد بالانتصارات التى تحققها الدولة الجديدة الناشئة ، وتنمق الأوصاف فيما ينتظر من السعادة والأمن والرخاء ، والتقدم السياسى والفكرى والعلمى والصناعى فى المنطقة كلها بفضل هذه الصفوة المختارة .

ونحن لا ننسى أقوالا ترددت فى صحافة العالم كله ، تصريحات ظالمة غاشمة قبلتها الإنسانية إذ ذاك بدون تمحيص . فالساسة اليهود الفرنسيون يرددون فى كل وقت أن دولة إسرائيل هى الدولة الديمقراطية الوحيدة فى الشرق الأوسط ، فيؤمن المتحدثون الرسميون فى روسيا ورومانيا وبولونيا على ذلك ويقف حاييم وايزمان ملوحاً بالإمكانيات القتالية والسياسية لليهود فى العالم فيقول : إنهم قوة تعميرية حضارية هائلة إذا وقف أحد فى وجهها فإنها قديرة على أن تكون قوة انتقامية تدميرية هائلة أيضاً . ويردد رئيس وزراء فرنسا الاشتراكى « جى موليه » إبان أزمة قناة السويس وقبيل اشتراكه فى العدوان الثلاثى على مصر سنة ١٩٥٦ قوله : إن هذا الشعب الصغير ، شعب إسرائيل لجدير حقاً بالإعجاب .

ولا يفوتنا فى هذا التقرير الملخص السريع أن نشير إلى أن قيام دولة إسرائيل فى فلسطين فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ كان مسنوداً من داخل الأمم العربية فى جميع أوطانها بعملاء للصهيونية من بين الاسرائيليين المقيمين فى البلاد العربية ، كانت هذه السياسة المتواطئة مع الاستعمار قد استقطبتهم على مدى سنين طويلة يؤيدونها بالمال وبالجاسوسية وبممارسة التأثير على الزعماء والحكام ، بالرشوة حيناً وبالمداهنة والتملق والتذلل أحياناً وبالتهديد بتفجير أزمات مالية أو سياسية ، وبوسائل أخرى غير أخلاقية تدور وراء أبواب القصور .

وفى الخلوات الخاصة والمخادع المستورة للسادة والأمراء والكبراء ، ممن بيدهم الحل والعقد ، وبقيام دولة إسرائيل رسمياً فى فلسطين اتخذ

الصراع العربى الإسرائيلى صورة أكثر وضوحاً ، وأصبح للحوادث « منطق » معقول لدى المراقبين السياسيين مهما كانوا أذناباً لليهود ، أو استعماريين متحفزين ، أو إنسانيين مخدوعين بالأكاذيب الإسرائيلية العالية الصوت الواسعة الانتشار ، المسبوكة بحذق وفن ودراسة . كانت مشكلة اللاجئين الفلسطينيين الذين تجاوز عددهم المليون ماثلة تحت أعين الأمم المتحدة ، والعالم كله مربوطةٌ فى أعناقهم بحبل من مسد . لاسيما بعد أن أنشأت الأمم المتحدة لجنتها الدولية لإغاثة هؤلاء اللاجئين المعروفة باسم « الأونروا » فقد كانت كل تقارير الخبراء الدوليين ، والزوار المتطلعين لمعرفة الحقيقة تنطق بأن هذه الجماهير الضخمة من المشردين المنبوذين كانت و ما تزال الضحية الحية الناطقة بجرم التوسع العسكرى الإسرائيلى . ومع ذلك فقد حاول اليهود وحلفاؤهم المغالطة ، فراحوا يتهمون الدول العربية المحيطة بإسرائيل بأنها هى التى جعلت من اللاجئين وصمة جبين الإنسانية ، إذ كان بإمكانها استيعابهم وإيواؤهم وتوطينهم وتشغيلهم فى أراضيها . وكأنهم يريدون من المنظمة الدولية ومن الرأى العام العالمى ، أن يقف باستمرار مسخراً عن طاعة عمياء لتكريس كل عدوان توسعى إسرائيلى وابتلاع ما يتمخض عنه من نتائج .

ولما كان اليهود قد تدربوا على مدى ألفين من السنين على المناقشات الثرثارة والفتاوى المستحيلة ، والتفنن فى التحليل والتحريم على عكس ما وصى به الله و أمرت به أبسط قواعد الأخلاق ، وأحسنوا تنميق هذه الثرثرة فى مخابراتهم الطويلة التى لا تكاد تنتهى ، فى

المدارس والتلمود ، فإنه ليس من العجيب أن يستمروا فى مثل هذا النقاس الفارغ المصدع للرءوس فى العصر الحديث ، وفى المجتمعات الدولية والأوساط الدبلوماسية حول مشكلة فلسطين ، حتى تأقلمت البشرية فى هذه المشكلة وتبلد إحساسها بها ، وأصبح الفصل فى أقل جزئياتها يحتاج إلى مراجعة أكداس كبيرة من الوثائق والأوراق والملفات والكتب ، وإثارة ما لا ينتهى من المناقشات الجديدة والاعتراضات الجانبية وهكذا دواليك . فإذا سنحت الفرصة فى أثناء ذلك للقوة المسلحة الإسرائيلية وأمكنها الوثوب على فريسة جديدة من الأراضى العربية انقضت على غرة ، وأضافت إلى الوقائع المريرة السابقة أمراً واقعاً جديداً يطول به النقاش وتحلو حوله الثرثرة ، وتكسب من ورائه الصهيونية سنوات أخرى من الأمن وادعاءات أخرى فى الانتصار .

ووقعت الأمم المتحدة برمتها فى هذا الشرك ، ووقعت معها الأمم العربية أيضاً وتتابعت مسودات جديدة لمشروعات معدلة حول تقسيم فلسطين . والعرب فى كل مرة يرفضون التقسيم الجديد ويطلبون العودة إلى ما قبله . فى سنة ١٩٤٧ كانوا يتمسكون بالكتاب الأبيض لسنة ١٩٣٩ وبعد حرب١٩٤٨ ، وأمام مشروع تقسيم جديد ، أصروا على تطبيق تقسيم سنة ١٩٤٧ وفى أعقاب العدوان الثلاثى لسنة ١٩٥٦ ألحوا فى ضرورة العودة إلى خطوط ١٩٤٨ ، وقبيل الزحف العسكرى الاسرائيلى لسنة١٩٦٧ كانوا ينادون بالالتزام الدقيق لحدود هدنة ١٩٥٦ ، وبعد حرب الأيام الستة فى يونيه ١٩٦٧ ما تزال مطالبنا تنحصر فى جوهرها ، فى ارتداد القوات الإسرائيلية إلى مواقعها قبل اشتعال هذه الحرب .

وكادت المشكلة الأُولى والأَساسية تذوب فى هذا السيل المتدفق من المساومات ، وهى مشكلة وجود دولة إسرائيل ذاتها فى المنطقة إذ لم يعد أَحد يجد لديه الجرأَة فى أَن يعتقد ، ولو فى قرارة نفسه فقط ، بضرورة زوال هذا التنظيم السياسى العسكرى الدخيل البغيض . ويكاد من يفكر فى ذلك يخشى من ضحك الناس وسخريتهم واتهامهم له بالتخلف العقلى والغيبوبة عن واقع الأُمور . ناسين أَن الصهيونى تيودور هرتسل عندما وضع مخططه وسماه دولة اليهود لم تكن لليهود دولة ولم يكن هو يتصور أَنه سوف يراها حقيقة واقعة ، ولا كان يتصور ذلك واحد من أَعضاء المؤتمر الصهيونى الأَول . كما أَن انجلترا عندما وعدت بتيسير مقر قومى لليهود فى فلسطين فى تصريح بلفور ، لم تكن لا هى ولا اليهود يملكون شيئاً فى فلسطين . وإنما كانت الصهيونية فكرة تمسك أَتباعها بها . وصبروا أَجيالا متعاقبة فى سبيل إخراجها إلى حيز الواقع دون يأْس أَو ملل ، مستغلين جميع الظروف للوصول إلى أَهدافهم .

والموقف العربى كان على عكس ذلك تماماً على الرغم من وجود الحق فى جانبهم . فقد كان يسرع إليهم الشك ، ويدب فيهم اليأْس ، ومع الشك واليأْس والخسائر المتكررة يظهر الخلاف والشقاق ، وتتبدد ثقة الأُخوة بعضهم ببعض .

وذلك هو ما آل إليه الموقف العربى فى بعض الظروف العصيبة الأَخيرة ، حتى لقد تطاول كثير من الزعماء اليهود فراحوا يسخرون منا فى كل مناسبة وبغير مناسبة فموشى ديان يعلن فى أَعقاب حرب يونيو ١٩٦٧ أَن إسرائيل كانت منذ قيامها تشعر بضرورة

اعتراف العرب بها ، أما الآن فإن العرب هم الذين يحتاجون إلى أن تعترف بهم إسرائيل ، وهو كلام خطير له مغذى أبعد مجرد النكتة السفيهة والسخرية اللازعة فعدم الاعتراف فى عالم السياسة معناه الإهدار الكامل ، والاستباحة التى لا تقف عند شريعة ولا تخشى من قانون ، وهذا هو موقف إسرائيل تماماً من الحدود العربية الآن . وموشى ديان نفسه هو الذى صرح أكثر من مرة عند مناقشته فى الرجوع إلى حدود ما قبل يونيه سنة ١٩٦٧ بأن الفكر السياسى والعسكرى العربى متخلف عن الواقع بمقدار حرب بين العرب واليهود ، وأنه فى كل مرة نجد العرب يطالبون اليهود بالعودة إلى الحدود التى كانت قبل آخر صراع ثم يضيف إلى ذلك ضاحكاً : إنه على هذا القياس ليس من مصلحة اليهود أن تتوقف حروبهم مع العرب فربما تكون الجولة القادمة سبباً فى رضاهم بما يرفضونه الآن . وهو أيضاً كلام خطير على ما فيه من سوقية وعجرفة ، إذ أنه يجعل من التوسع العسكرى الإسرائيلى فى الأرض العربية سياسة ضرورية لإسرائيل ، تأتيها بمكاسب لا تستطيع تحقيقها بغير ذلك .

كل هذا لأن الاسرائيلى الآن مطمئن تماماً إلى أن العرب بعد عشرين عاماً فقط من قيام إسرائيل ، وهى مدة لا تكاد تذكر فى عمر السياسة ، ولا فى حياة الدول والشعوب ، قد نسوا تماماً الحل الأوحد والأول والأمثل للعرب ، ولقضية الحرية فى العالم ، وللسلام بين البشر وهو زوال الصهيونية من الوجود .

نظرة على ما قبل الصهيونية

يطول بنا القول لو أننا حاولنا أن نتتبع كل سوابق اليهود مع الطغيان والاستعمار عبر التاريخ ، كما أن ذلك يخرج بنا عن حدود الموضوع الذى التزمنا ببحثه ، وهو ارتكاز الاستعمار فى بلاد المسلمين على اليهود . لكن لكى نتصور النفسية اليهودية فى معايشتها للناس لا بد أن نذكر أن ما تعرض له اليهود من نقمة الله ، ونقمة أنبيائهم عليهم ، وما تبع ذلك من تعرضهم للمذلة والتشريد ، قد بلور فى قلوبهم عقدة الوضاعة ، بحيث تحولوا إلى أقاية مظلومة من ناحية ، وحاقدة من ناحية أخرى ، يزيد حقدها ، فيزيد عليها الظلم فتزيد انكماشا وحقدا ، وتعيش فى داخل هذه الحلقة المفرغة قرونا وقرونا من السنين . وقد أوحى لها هذا الحقد بالإسراع إلى معاونة الطغاة ، والتصرف بأمرهم فيمن يريدون إيذاءه من الأمم . تعاونوا مع قمبيز فى غزوه لمصر فى القرن الخامس قبل الميلاد وأصبحوا ضمن كلاب الحراسة الفارسية فى وادى النيل . وسمح لهم الامبراطور الفارسى بمصاحبة حامياته العسكرية وتموينها والتعامل معها . ووصلوا فى توغلهم فى الأرض المصرية إلى أقصى الجنوب فى أسوان ، حيث تدل وثائقهم المكتشفة هناك والمكتوبة بلغة آرامية تقترب من لغة التلمود ، على معيشتهم متجاورين لجيش الاحتلال الايرانى ، يقومون بتموينه ، والعمل فيه كصناع وعمال ، والتعامل معه بتجارة الخمور وتوريد النساء والولدان . وتعاونوا بعد ذلك مع الاسكندر الأكبر ، والبطالسة والسلوقيين والرومان ، كل ذلك مقابل منافع معينة يظفرون بها على

حساب الأمم المحكومة ولكن تعارضت المصالح إبان ظهور السيد المسيح عليه السلام ، وعلى أثر الدعوات الإصلاحية المتكررة التى قامت بين اليهود . فتم تشتيتهم فى الأرض سنة ٧٠ ميلادية ثم جاء الامبراطور هدريان سنة ١٣٥ فأكمل استئصالهم ، وقضى على أحلامهم فى السيطرة على العالم . واضطهدتهم أوربا المسيحية فى العصور الوسطى أشد الاضطهاد بينما أحسن الإسلام إليهم وجعلهم من أهل ذمته ، ودخلوا بنص القرآن الكريم بين أهل الكتاب .

كانوا يعيشون فى ظل العرب والمسلمين فى إيران والعراق والشام ومصر وشمال إفريقيا والأندلس فى رخاء وازدهار لم يعرفوه قطعًا منذ أيام نبيهم وملكهم سليمان بن داود فظهر منهم علماء كبار ، وازدهرت جامعاتهم ، ومراكزهم العلمية ، من أصفهان ، والموصل ، وبغداد ، ودمشق ، وطبرية ، والقدس ، والقاهرة ، والفيوم ، والاسكندرية ، والقيروان ، وفارس ، وقرطبة ، وأشبيلية ، وسرقسطة ، وعرفت اللغة العبرية نفسها فى ذلك الوقت عصرًا ذهبيًا لم تعرفه من قبل .

فقد تعلم علماءُ اليهود من أئمة العرب مناهج البحث فى اللغة والأدب والشريعة والعقيدة ، وطبقوا ذلك كله على تراثهم فظهرت فيهم المعاجم وكتب النحو والفقه والتوحيد والرحلات الجغرافية والتفاسير المطولة للتوراة والتلمود ، كما انتشرت دواوين شعرائهم بغزارة ينظمونها على موازين الشعر العربى التى استنبطها الخليل بن أحمد الاسدى البصرى الفراهيدى . واشتغلوا فى الدول العربية والإسلامية بأرفع الأعمال فكان منهم القادة والمحتسبون وجباة الضرائب والمهندسون والأطباء والفلكيون وكبار الكتاب والمستشارون والوزراء ومع ذلك فإن آفة

الحقد القديم كانت تنتابهم كرة بعد أُخرى فلا يتورع سفهاؤهم عن الكيد للإسلام ، وإدخال الكثير من الخرافات فيه ، مما أصبح يشكل داءًا دفينًا فى ثقافتنا العربية الإسلامية ، كثرت شكوى علمائنا منه قديمًا وحديثًا تحت اسم (الاسرائيليات) .

ولم يقف الأَمر بهم عند هذا الحد ، بل ظهرت بينهم فى ظل الإسلام حركات كثيرة مريبة لعل أَشهرها ما قام به الداعية اليهودى أَبو عيسى الأَصفهانى ، واسمه عوباديا اسحق بن يعقوب . الذى عاش فى عهد الخليفة الأَموى عبد الملك بن مروان ، وأَراد أَن يكتل أَبناءَ طائفته حول دعوة جديدة تهدف إلى الحصول على كيان قوى لهم ، فادعى أَنه المسيح المنتظر ، وبعد موته حمل دعوته تلميذه (يودجان) الذى سماه أَتباعه (الراعى) وهو اقب وصل محرفاً إلى علماءِ المسلمين ، فسماه الشهرستانى (الداعى) وإليه تنسب طائفة من اليهود اسمهم اليود جانية . وكذلك فى أَيام الخليفة الأَموى العادل عمر بن عبد العزيز ظهر فى سوريا يهودى اسمه « سيرينوس » ادعى هو أَيضاً أَنه المسيح .

وكان الخليفة قد لاحظ إساءة اليهود استعمال الحرية التى منحها لهم الإسلام فبدأَ يشدد الرقابة عليهم ويعاقبهم بحزم إذا هم انحرفوا . فقام هذا اليهودى يدعو إلى مجتمع فوضوى يقول بالحرية المطلقة ، وإلغاء السلطة الحاكمة وتعطيل شرائع التلمود وإبطال الصلاة وإباحة النساء بدون زواج ورفع الحظر عن المحرمات فى الطعام والشراب . . إلخ ، واستمرت دعوته إلى الخليفة التالى يزيد بن عبد الملك بن مروان

الذى ألقى القبض عليه فادعى أنه لم يكن جاداً ، وأنه كان يريد الضحك فقط . وظهر من أمثاله آخرون فى قرطبة سنة ١١١٧ ميلادية ، وفاس سنة ١١٢٧ ميلادية ، وفى سنة ١١٣٥ ميلادية ومع اشتداد وطأة الحروب الصليبية على المسلمين قام فى كردستان يهودى خطير هو داود الرائى المولود فى مدينة آمد بأقاليم كردستان . وقد بدا له حوالى سنة ١١٦٣ ، وكان قد أتقن العلوم اليهودية ومعها علوم السحر والتنجيم ، أن يدعى أنه المسيح المنتظر ، وقام بحركة صهيونية تقوم بالاستيلاء على فلسطين .

وطرد العرب منها وإعلان دولة إسرائيلية فيها . وكان له مخطط جهنمى يعتمد على تشجيع عوامل الضعف فى العالم الإسلامى بالجاسوسية والحرب ونشر الإشاعات والخرافات وتشجيع الإلحاد والزندقة والانحلال الخلقى ، وإثارة الأقليات الدينية والعنصرية ضد وحدة العالم العربى والإسلامى وقد تناولت مبادئه الهدامة بلاد فارس والعراق ومصر ، وسوريا ، متعاوناً فى ذلك مع المستعمرين الصليبيين حتى أنه نجح فى إثارة القلاقل فى الدولة السلجوقية وفى الخلافة العباسية ، ثم إنه انتقل من هذه المرحلة إلى مرحلة الهجوم العسكرى فجند جيشاً من المتطوعين اليهود فى إقليم أذربيجان ، واستمر صراعه العسكرى حتى قضت عليه الجيوش الإسلامية فى شمال العراق .

ومن هؤلاء الفوضويين المسيح الكذاب داود الرأوبينى المولود حوالى سنة ١٤٩٠ ميلادية فى خيبر بالقرب من المدينة المنورة . وقد بدأ دعوته بأنه المطالب الشرعى بعرش اليهود فى خيبر التى احتلها الرسول صلى الله عليه وسلم . وكانت أول فكرة تنبثق فى رأسه هى أن يتعاون مع

المستعمرين الأُوروبيين ، ومن يتوسم فيهم أَنهم أعداءٌ للعرب والمسلمين فأَرسل إلى البابا فى روما وإلى ملوك أُوربا يطالب منهم أن يمدوه بالأَموال والأَسلحة لكى يحارب العرب وعلا شأْنه جداً فاستقبله البابا (كليمنت السابع) فى الفاتيكان سنة ١٥٢٤ باحتفال ضخم وفى السنة التالية استقبل استقبالا رسمياً فى قصر ملك البرتغال . ولكن كان بعض اليهود الذين دخلوا فى المسيحية فى أَسبانيا والبرتغال ، قد بدأُوا من فرط تحمسهم لهذا المسيح الكذاب يعودون إلى اليهودية وحدث أَن عاد إليها أَحد وجهاءِ اليهود المتنصرين واسمه « دييجو بيريز » وسمى نفسه « سالمون مولخو » ، فكره المسيحيون هذا الداعية اليهودى ، وقرروا إحراق مولخو علناً بتهمة الكفر ، والقبض على داود الرأُوبينى الذى سقط فى أَيديهم فى أَسبانيا وسجن وقتل مسموماً فى السجن . كل هذه صور من الأَحقاد اليهودية التى كانت تظهر كلما سنحت الفرصة فى داخل المجتمع الإسلامى الكريم المتسامح ، الذى وهب لليهود الأَمن والعلم والحرية .

وإذا كانت الفتن الدينية والدسائس السياسية من الأَساليب التى اتبعها اليهود أَفراداً وجماعات فى سبيل إضعاف العالم الإسلامى والنيل منه بكافة الطرق ، بهدف الاستيلاءِ على فلسطين ، وجعلها منطلقاً لحركة استعمارية واسعة النطاق ، ميدانها الشرق العربى والإسلامى كله فقد كانت وسيلة المال والتسلل به إلى القصور ، وإلى الحكام وولاة الأَمر ، هو وما يصاحبه من مباذل وموبقات ، من أَنجح الوسائل التى حاول بها القوم ضعضعة الكيان العربى والإسلامى

ومن أهم الحركات التى اصطنعت هذا الأُسلوب حركة اليهودى يوسف النسئ ، فى قلب الخلافة العثمانية فى القرن السادس عشر الميلادى .
كانت أُسرة هذا الرجل من الأُسر اليهودية الثرية فى الأَندلس على أيام العرب فى العصور الوسطى . وبعد زوال الإسلام من أسبانيا ، بدأت محاكم التفتيش المسيحية الكاثوليكية تشدد النكير على من بقى من العرب ومن يواليهم من اليهود فى هذه الأَرض .

وتحت ضغط هذا الاضطهاد الذى كان يفرض على تلك الأَقلية الباقية إما التنصر وإما القتل ، لجأَ كثير منهم إلى الفرار . وراحت أُسر يهودية كثيرة بأَكملها تهرب إلى هامبورج ، وأَمستردام ، وفرانكفورت ، ولندن ، وغيرها من بلاد غرب أُوربا ، حيث وضعت هناك نواة لطائفة من اليهود غريبة على تلك البلاد هم « السفرديم » أو اليهود الأَسبان المتأَثرون بالفكر العربى والإسلامى ، يزاحمون طائفة أُخرى أَكثر انتشارًا فى هذه الأَصقاع هم « الاشكنازيم » أَو اليهود الألمان أما أَكثر أُولئك السفرديم فإنهم ذهبوا إلى إيطاليا وتركيا وشمال إفريقية وما وراءها من بلاد الإسلام فى مصر وسوريا والعراق وإيران .

وكان من أَسلاف عائلة النسئ رجل واسع الثراء اسمه فرانسيسكو منديس يعيش فى لشبونة بالبرتغال ، وترك بعد وفاته أَرملة اسمها « بياتريس دى لونا بنفنيست ، أَو جراسيا منديس » ، كما اشتهرت فيما بعد . وقد صفت أَعمال زوجها وهربت بكل ثروتها إلى البندقية ، آخذة معها ابن اختها يوسف النسىء .

كان هذا الفتى على صلة صداقة مع « موشيه هامون » طبيب السلطان العثمانى بالقسطنطينية ، الذى كان أبوه يوسف هامون قد هرب من محاكم التفتيش الأسبانية عام ١٤٩٢ ، حيث قربه بايزيد الثانى وسليم الأول وجعلاه طبيباً لقصر الخلافة التركية . ثم خلفه ابنه موشيه طبيباً خاصاً للسلطان سليمان الثانى « ١٥٢٠ – ١٥٦٦ » . وكان له نفوذ واسع فى الأوساط الرسمية فى الدولة العثمانية .

انتقل يوسف النسئ وخالته جراسيا من لشبونة إلى البندقية كما قلنا ، ثم منها إلى « فرارى » وأخيراً استقرا فى القسطنطينية ، وأصبحا أكبر وأغنى تجار الشرق الإسلامى ، بل حوض البحر الأبيض المتوسط وما يزال فى استانبول معبد يهودى كبير يحمل إلى يومنا هذا اسم جراسيا منديس . وقد تزوج يوسف بابنة خالته « رينا » وبدأت الأسرة ترسم حول السلطان سليمان الثانى ، وبمساعدة طبيبه الخاص اليهودى موشيه هامون ، مخططاً صهيونيا قبل ظهور تيودور هرتزل بأكثر من ثلاثة قرون .

كانت هذه الأسرة الغنية تسارع إلى تدعيم مالية الباب العالى كلما أحست بأنه فى أزمة ، وكان السلطان يرسل يوسف النسئ سفيراً من قبله إلى ملوك أوربا ، بل إنه ألزم فرنسا بتعويض صاحبنا اليهودى هذا هو وأسرته على الأضرار المالية التى لحقتهم قبل التجائهم إلى تركيا .

وأصدر السلطان سليم الثانى بعد استيلائه على مصر قراراً بمصادرة ثلث شحنة أية سفينة فرنسية تدخل الموانىء المصرية ، وتسليم حصيلتها لليهودى يوسف النسئ .

واستغل النسئ هذا العطف السلطانى فطلب إعطاءه كل إقليم طبرية بفلسطين ، ليكون ملجأً قومياً لليهود ، واستجاب السلطان له ، كما أعطاه مجموعة من جزر الأرخبيل اليونانى منها جزيرة « نيكسوس » وأنعم عليه بلقب « أمير نيكسوس » . وكان صاحبنا يصدر المراسيم باسمه . ويبدؤها بهذه الصيغة : « نحن يوسف النسئ ، دوق بحر إيجة ، ومتصرف أندروس ، نأمر بما هو آت » . وأغرب شيء أن هذا الرجل الخطير حصل على فرمان من الباب العالى يحرم على المسلمين الإقامة فى الجزر التركية التى كان يحكمها . وأغرب من ذلك أنه أحضر من أسبانيا مساعداً له ، وعينه « قائمقام » فى مملكته الصغيرة ، وكان مسيحياً اسمه « كورونيلو » ، ولكن السر الذى لم يكن يعرفه إلا النسئ هو أن كورونيلو من سلالة يهودى أسبانى مشهور هو إبراهام سنيو .

وفى هذه الأثناء كان يوسف النسئ يقيم فى قصر فاخر بضواحى استانبول هو قصر « البلفدير » . وعبثاً حاول الوزير محمد باشا الصقلى أن يثنى السلطان عن حبه ليوسف النسئ وتحمسه له .

بعد ذلك بقليل احتل الأتراك جزيرة قبرص : نيقوسيا أولا ثم فاماجوستا سنة ١٥٧١ ، وكان السلطان فى أثناء المعارك قد وعد النسئ بتعيينه حاكماً عاماً لهذه الجزيرة بلقب باشا أو خديوى .

إزاء ذلك لجأ محمد باشا الصقلى إلى الأساليب اليهودية نفسها ليحمى نفسه ويحمى الدولة من ازدياد نفوذ النسئ . فاستعان بيهودى اسمه سالمون اشكنازى ، وكان قبل مجيئه إلى تركيا طبيباً خاصاً للملك

بولونيا سجسموند أوغسطس ، ولكن اليهود كانوا أشد خبثاً من أن تتم عليهم حيلة الوزير التركى ، فاتفق يوسف النسئ وسولومون اشكنازى ، وأصبح يهود الدولة العثمانية فى عصر ذهبى قلما جاد لهم الدهر بمثله ، ينتشر نفوذهم على كل شيء فى كل نواحى الخلافة الإسلامية التركية . ومما زاد الأمر خطورة وجود يهودية ثرية هى « استير كييرا » فى استانبول ، وتمتعها بثقة حريم القصر ، حتى أصبحت وصيفة للسلطانة نفسها .

وفى طبرية أراد يوسف النسئ أن ينشىء وطناً قومياً يهودياً ، فأعاد بناء المدينة ، وأكثر حولها من المشروعات العمرانية والزراعية ، وغرس الآلاف المؤلفة من أشجار التوت ، وشجع أعداداً ضخمة جداً من يهود أوربا على الهجرة إلى فلسطين والاشتغال بإنتاج الحرير الطبيعى وتصنيعه . ولولا إرادة الله وحدها لتم للنسىء ما أراد . فقد تفشت الأوبئة كالملاريا والطاعون بين هؤلاء اليهود فقضت عليهم وعلى أول مشروع استعمارى يهودى لفلسطين .

وقد اقترنت حركة النسئ بجهود ملحوظة فى الدعاية ، وإثارة النزعات القومية العنصرية بين يهود تركيا ، ومن أقطاب هذه الحركة الطبيب صموئيل شولام ، والكاتب اسحق عكريش ، وقد نشرا مؤلفات هامة فى تاريخ اليهود لمؤلفين من المتعصبين من بنى قومهم ، كانوا لا يجرءون على نشرها فى أوربا .

ومع ذلك فنحن مع يوسف النسئ نساير حركة ، خطيرة جداً بدون شك ، ولكنها تتسم بالجدية والتخطيط السياسى والاقتصادى

المعقول . وقد أتحفنا المجتمع اليهودى المتآمر دائماً وبلا جريرة على العرب والمسلمين ، بلون آخر من خبثاءِ اليهود ممثل فى « شبتاى صبى » وهو اللون الهزلى الذى يتحدى العقل والمنطق والدين والقيم كلها .

وهو من مواليد أزمير ، فى صيف ١٦٢٦ ، وأبوه مردخاى من سلالة يهودية اشكنازية (ألمانية) مهاجرة إلى أزمير ، بعد فترة قضتها فى شبه جزيرة المورة باليونان .

كان أبوه يتجر فى البيض والطيور ، ثم صار وكيلا لشركة تجارية بريطانية أثرى من ورائها ثراءً ضخماً . وكان ابنه شبتاى هذا يبدو موفور الذكاءِ دخل فى سن السادسة مدرسة يهودية لتعليم التوراة والتلمود ، وما إن بلغ الخامسة عشرة حتى كان يتعاطى التدريس واستهوته دراسة « القبالة » وهى علم التأويلات الباطنية عند اليهود ، فأمعن فى البحث فيها .

وفى سن الثامنة عشرة حصل على إجازة للتدريس وتخريج الطلاب . وكان حسن الهيئة طلى الحديث طلق اللسان ، وقد اتسعت ثروة أبيه جداً أثناء النزاع المسلح بين تركيا وإمارة البندقية حول السيطرة على جزيرة كريت . وخطب الأب لابنه بنتاً لأحد كبار اليهود الأغنياء ، وكانت فيما يقال جميلة جداً ، ولكنه لم يقترن بها وتركها ، وتزوج من فتاة أخرى ، ثم طلقها أيضاً دون أن يدخل بها . وكان هذا الفتى يحس بأنه قدير على أن يعمل عملا سياسياً ودينياً ضخماً جداً لبنى إسرائيل ، فراح يحسب الحسابات الفلكية حسب أسرار علم الباطن « القبالة » ثم أعان أنه هو المسيح المنتظر وأن سنة الخلاص لليهود

هى سنة ١٦٤٧ ، وافتتن به تلاميذه فاتبعوه ولكن رؤساء الدين اليهودى رفضوا دعوته وكفروه هو ومن آمن به . وأحس بأن مدينة أزمير بدأت تضيق فى وجهه فهرب منها بحراً إلى القسطنطينية وكان السلطان وحكومته بعيدين عنها فى مدينة أدرنة . فانتهز « شبتاى صبى » الفرصة وراح يبشر اليهود بالخلاص ، وانضم إليه يهودى آخر هو أبراهام باكيتى الذى بذل جهداً كبيراً فى نشر دعوته .

والظاهر أن يهود أزمير كانوا قد كتبوا فى أمره إلى القسطنطينية ، فخاف وهرب منها هو وأتباعه متجهين إلى مدينة سالونيك التى كانت مقراً لجالية يهودية كبيرة ومركزاً لدراسة « القبالة » أو علم الباطن . وطاب له ولأتباعه المقام لمدة ثمانى سنين . وذات ليلة أعلن على الملأ أنه المسيح المنتظر . فثار عليه شيوخ اليهود واستصدروا من المحكمة المالية قراراً بكفره واستحقاقه للقتل . ففر سنة ١٦٥٨ ، وبقى هائماً على وجهه سنة كاملة ذهب فيها إلى أثينا ومنها هرب إلى أزمير ثم عاد إلى القسطنطينية ، وهو فى أثناء ذلك يوهم الناس أنه يحسب النجوم والطوالع ، ويرى أن وقت خلاص اليهود قد آن ، وأن الدولة اليهودية ستقوم فى فلسطين . ولكن المتعقلين من اليهود كانوا يعارضونه بشدة ، حتى هرب إلى بلدة أزمير ، فأقام بها ثلاث سنين ملتزماً الحيطة التامة والسرية فى اتصالاته .

وكانت بدعته التى ابتدعها تشبه الوباء ، فسرعان ما انتشرت أصداؤها لدى المسلمين والمسيحيين . فشاع بين المسلمين اقتراب ظهور المهدى المنتظر ،

كما قال المسيحيون بأن سنة ١٦٦٦ هى موعد عودة المسيح إلى الأرض ، بل قال بعض المسيحيين بأنها سنة خلاص اليهود أيضاً . وجددت هذه الإشاعات نشاط شبتاى صبى فاتجه سنة ١٦٦٢ أو ١٦٦٣ من أزمير إلى القدس ، وتركها إلى الاسكندرية ومنها إلى القاهرة حيث تعرف بيهودى من وجهاء المجتمع هو رفائيل يوسف جلبى ، مدير خزانة الدولة ، ورئيس الطائفة اليهودية بمصر . فآمن به وأكرمه وأمده بالمال الكثير . فقرر أن يقوم برحلة أخرى إلى القدس ماراً بغزة والخليل . وكانت أحوال اليهود فى فلسطين قد ساءت جداً . فانتهز صاحبنا الفرصة وسار فيهم بشيراً ، فكثر أتباعه . وأظهر هو الزهد والعبادة ، واهتم بتدريس علم الباطن ، بل كان يأخذ بعض ضعاف العقول إلى المقابر فى ظلام الليل ، ويمارس عليهم تأثيراً نفسانياً بحيث يؤكدون أنهم سمعوا أصواتاً تهتف من القبور وتصيح « شبتاى صبى هو المسيح » . وفى هذه الفترة اتخذ له بطانة من الأعوان كان أقربها إليه يهودى أفاق معروف بالإجرام اسمه صموئيل فريمو .

وحدث فى ذلك الوقت أن القائمقام (والى فلسطين) فرض إتاوة باهظة على اليهود . ففكر شبتاى صبى فى أن يسوى لهم المشكلة بمعونة مالية من صديقه اليهودى المصرى رفائيل يوسف جلبى . وفعلا ترك القدس وعاد إلى القاهرة .

وتصادف فى نفس هذه الفترة أن كانت فى أوربا فتاة يهودية اسمها سارة ، هربت من بولونيا إلى أمستردام ، وفكرت فى أن تتزعم حركة بين قومها فراحت تبشر بقرب قيام المسيح اليهودى ، الذى يعيد

ملك بنى إسرائيل فى فلسطين . وكانت سارة على جانب كبير من الجمال فكثر أهل الريبة والفسوق بين المؤمنين بها . وأخذت تطوف أوربا حتى وصلت إلى مدينة ليفورنو الإيطالية . وما أن سمع بها شبتاى وهو فى القاهرة حتى أرسل يخطبها [١] .

أما رفائيل يوسف جلبى فإنه أعطى صاحبنا المال اللازم لمساعدة يهود القدس فى دفع الإتاوة المفروضة عليهم . وفى الطريق مر بمدينة غزة ، والتقى بيهودىّ آخر من أصل اشكنازى (ألمانى) ، اسمه « ناتان بنيامين هاليفى » الذى يعرف فى تاريخ هذه الحركة باسم ناتان الغزاوى. فاتخذه شبتاى من صحابته المقربين ، وأعلن أنه نبى فى إسرائيل ، واتفق معه على تزييف وثيقة تشهد بأن « شبتاى صبى » هو المسيح المنتظر . فأحضرا قطعة قديمة جداً من رق الغزال ، وأزالا الكتابة التى عليها ثم كتبا معاً نصاً يثبت ما أراد ، وأظهرا الصحيفة للناس . ثم دخل شبتاى القدس فى حفل عظيم فى أخريات سنة ١٦٦٤ ، فأعلن بنفسه أنه المسيح ، وأنه المتصرف فى العالم كله .

وثار رجال الدين اليهودى ضده ، واجتمع الموجودون منهم فى القدس وهاجموه هو وتابعه ناتان الغزاوى حتى طردوهما . ولكن بمجرد وصول ناتان إلى غزة بعث بمنشور لكل شيعته يطلب منهم أن يبشروا فى كل مكان بأن شبتاى صبى — وكان مختفياً إذ ذاك — ، سيظهر للناس . وكان أول ظهوره فى أزمير ، فى عيد رأس السنة اليهودية الموافق ١٠ سبتمبر سنة ١٦٦٥ فسارت المواكب من أتباعه تهلل وتنفخ فى الأبواق ، فاشتد

(١) الدكتور حسن ظاظا : الفكر الدينى الإسرائيلى — القاهرة ١٩٧١ — ١٤١ ص ١٥٠

غضب رؤساء اليهود ، وأعلنوا فتوى شرعية بإهدار دمه ، ولكن لم يجرؤ أحد على المساس به لكثرة أتباعه . وتشجع هذا المسيح الكذاب فأعلن أن غضب الله على اليهود قد ارتفع ببعثته ، وأن اسمه الأعظم الذى كان محرماً عليهم النطق به بسبب تدنيسهم له منذ ما قبل السبى البابلى ، قد أصبح مباحاً الآن ، لأن المسيح والملك ، الذى سيجلس على عرش اليهود فى فلسطين ، ويخلصهم من غضب الله ومن التشرد فى الأرض ، قد جاء .

وفى يوم ١٧ ديسمبر سنة ١٦٦٥ ، وكان فى أوج مجده ، استدعى للمثول أمام قاضى المسلمين . فأشاع بين أتباعه أنه سيذهب ليقيم له الدليل على صحة دعواه بعمل بعض الخوارق والمعجزات . وانتشرت الشائعات بذلك ، وتغنى الأطفال بكراماته الخيالية . واتسع نطاق هذه الفتنة التى يقال أن صاحبنا كان أثناءها يشترى سكوت السلطان بالرشوة .

ومع ذلك فقد وصلت أخبارها إلى الوزير التركى « أحمد باشا كوبرلى » فى القسطنطينية ، ولما أرسل فى طلبه على يد قاضى أزمير ، قال له شبتاى : إنه سيقيم الدليل أمام الوزير على صحة نبوته . وغضب كوبرلى باشا ، فأرسل إلى قائمقام أزمير أمراً إدارياً بالقبض على هذا الدجال وإرساله إلى العاصمة فى الحديد وتحت الحراسة .

وتم ترحيله بالبحر من أزمير يوم ٣١ ديسمبر سنة ١٦٦٥ واستمرت الرحلة بسبب عواصف الشتاء إلى ٤ فبراير سنة ١٦٦٦ ، ثم أصيبت السفينة بعطل قرب بوغاز الدردنيل ، فأنزل ركابها إلى البر ، وأقيمت

حراسة مشددة على شبتاى صبى ، الذى استمرت رحلته فى عربة حتى وصل إلى قرية قريبة من القسطنطينية تدعى « كوشك شكمجى » . ووصل خبره إلى يهود العاصمة التركية فخرجوا لاستقباله ، وعاوده الأَمل فى الاستمرار فى ادعاء النبوة . ولكن أَحد الضباط الأَتراك الموكلين بحراسته ما كاد يسمع منه ذلك حتى صفعه على وجهه ، فحاول أَن يستمر فى تدجيله وأَدار له خده الآخر ليصفعه أَيضاً . وعندما مثل أَمام كوبرلى باشا أَنكر ، وزعم أَنه مجرد رجل دين يهودى من القدس ، يطوف بالبلاد ليجمع الصدقات . فلم يأْخذ الوزير بأَقواله ووضعه فى السجن . ثم نقل من سجن إلى سجن خشية أَن يحاول المؤْمنون به إخراجه بالقوة أَو بالحيلة ، حتى انتهى إلى قلعة حصينة على الدردنيل اسمها « إقليد البحر » ويسميها أَتباعه اليوم « إقليد العز » ويقدسونها .

وبعد اتصالات مختلفة أَحضره حاكم أَدرنه للمثول أَمام السلطان محمد الرابع يوم ١٦ سبتمبر سنة ١٦٦٦ فأَعلن أَنه يريد الدخول فى الإسلام ووافق السلطان وحاشيته ، وأَعلن شبتاى صبى دخوله فى دين محمد صلى الله عليه وسلم وأَصبح اسمه محمد أَفندى ولقبه « قافوجى باشى إيطراق » ومعناها خادم الأَعتاب أَما زوجته سارة ، التى كانت قد حضرت إليه من إيطاليا وهو بمصر وتزوجها فى مظاهر هائلة من البذخ ، فإنه أَعلن أَنها أَسلمت أَيضاً ، وأَصبح اسمها السيدة فاطمة أَو بالتركية « فاطمة قادن » .

وبالرغم من إسلامه واتقانه للعربية والتركية ودراسته للقرآن وتفسيره على يد مفتى الأَتراك ، فإنه لم يقطع الأَمل فى قيادة حركة

جديدة بين اليهود ، وقد كتب لأتباعه بعد إسلامه بتسعة أيام فقط يقول : لقد ألحقونى الآن بسلالة إسماعيل (يعنى العرب والمسلمين) ومع ذلك فأنا أخوكم محمد قافوجى باشى إيطراق . وكان كلما قابل بعض أتباعه القدماء أنكر الإسلام ، وأفهمهم أنه مجرد ستار يحتمى به ويتخفى وراءه ، فإذا التقى بالأتراك راح يتهم اليهود بالسخرية من الإسلام والدس على المسلمين ، محاولا بذلك استمرار الفتنة فى أدرنة والقسطنطينية . وبعد سنوات أحس الأتراك بخطورته فنفوه إلى ألبانيا وحددوا إقامته فى قرية « ألباسان » وهى موغلة فى داخل البلاد وجميع سكانها من الأرناءوط ، ويصعب على اليهود الاقتراب منها . وفيها عاش يتصل بأتباعه بالرسائل والمندوبين إلى أن مات بالكوليرا هناك فى ٣٠ سبتمبر ١٦٧٥ ، ودفن فى مقابر المسلمين الأتراك بهذه القرية .

وأتباع هذا المسيح الكذاب يسمون « دونمه » ، ويكتبها بعض المؤرخين « دومنه » . ويظهر أن التسمية كانت فى الأصل تعنى الفرقة ذات الأصلين : اليهودى والمسلم ، وأتباعها يسمون أنفسهم المؤمنين ، وعددهم قليل لا يتجاوز بضعة آلاف ، كلهم متمركزون فى تركيا ، ولهم جالية هامة فى سالونيك .

إلى جانب هذه الشخصيات اليهودية الخطيرة ، جادة كانت أم هازلة ، ظهرت فى ميدان التآمر الاستعمارى اليهودى على العالم العربى والإسلامى نماذج بشرية أخرى ، من النوع المريض ، الذى استغلته

المطامع اليهودية التي تستغل كل شيء ، فاستنبطت من ضعف نفسه هو قوة لها ، ومن هؤلاء الأمريكى « واردر كريسون » المولود فى فيلادلفيا سنة ١٧٩٨ ومات فى القدس فى ٦/١١/١٦٨٠

كان ينتمى إلى الطائفة المسيحية البروتستنتية المعروفة باسم « الكويكرز » ، وفى سنة ١٨٤٠ اتصل بالحاخام اليهودى الأمريكى اسحق ليسر ، وتلقى منه تعاليم اليهودية ، وراح يكتب مقالات فى صالح اليهود فى مجلة كان يصدرها الحاخام ليسر فى فيلادلفيا باسم « أوكسيدنت » أى الغرب .

وعلى أثر ذلك حدث من الحكومة الأمريكية أمر مريب . ففى سنة ١٨٤٤ عينت هذا المواطن المتعصب لليهود قنصلا عاماً للولايات المتحدة فى فلسطين وتم افتتاح القنصلية فعلا فى القدس ، بالرغم من أن السفير الأمريكى فى استانبول الذى كانت هذه القنصلية تابعة له لم يعلم شيئاً عن هذا التعيين . وقد كتب إلى حكومته محتجاً على هذا التجاهل التام له ولسلطاته القانونية المشروعة .

وفى سنة ١٨٤٨ تقدم واردر كريسون إلى حاخامباشى القدس إبراهام حاى جوجن بطلب رسمى بالدخول فى الديانة اليهودية . وتم له ذلك وأصبح اسمه الجديد ميخائيل كريسون بوعز إسرائيل .

وفى نفس السنة عاد إلى فيلادلفيا ، فوجد زوجته وجميع أسرته قد أقاموا دعوى ضده فى المحكمة يتهمونه فيها بالجنون ، ويطالبون بإبطال جميع الإجراءات وإلغاء جميع القرارات والوثائق الخاصة بتهويده . وحولت القضية إلى المحكمة العليا ، ووكل الطرفان عنهما نخبة من

كبار المحامين ، واستمع القضاة إلى أكثر من مائة شاهد . وأخيراً أصدرت هذه المحكمة حكمها بأنه مالك لكل قواه العقلية ، وحر فى تصرفاته ، ونشرت مجلة « أوكسيدنت » مرافعة الدفاع كريسون ، التى ألقاها أمام المحكمة المحامى هوارشيو هوفل .

كان كريسون طيلة تلك الفترة التى قضاها فى فيلادلفيا ، يدعو إلى استعمار يهودى لفلسطين . وكان يرى أن نقطة البدء فى ذلك هى إحضار مهاجرين من اليهود ، وإسكانهم فى منطقة النقب الشمالى والعمل على تمليكهم وادى الرفائيم إلى الجنوب الغربى من القدس وبيت لحم ، واستعان على ذلك بأموال يهودية أمريكية .

وفى القدس تزوج بامرأة يهودية شرقية ، وارتدى قفطان اليهود الشرقيين وظل خادماً مطيعاً لسادته اليهود حتى مات سنة ١٨٦٠ ، ودفن فى سفح جبل الزيتون ، شرق القدس .

وإلى جانب مقالاته فى مجلة أوكسيدنت ، نشر مقالات أخرى طبعت على حدة مساهمة منه فى الدعاية لعودة اليهود إلى فاسطين ، أهمها مقال عن النبيين موسى والياهو ، ومقال آخر بعنوان « إسرائيل شجرة الزيتون الطيبة » ، وهذان المقالان نشرا فى لندن عام ١٨٤٤

ولسنا نريد أن نلقى القول جزافاً ، ولكننا نلاحظ أن هذا التحرك المريب اقترن فى الفترة نفسها وفى السنوات القليلة التالية بحركات أمريكية لإذكاء نيران الخلافات الدينية فى كل منطقة الشرق العربى ، بالتوسع فى إرسال المبشرين الأمريكان وافتتاح المدارس الأمريكية . إلى أن اشتعلت الحرب الطائفية الأهلية فى لبنان فى نفس السنة التى

مات فيها واردر كريسون وهى سنة ١٨٦٠ ، وأُنشئت فى أعقاب ذلك الجامعة الأمريكية فى بيروت .

وفى منتصف القرن التاسع عشر ، ونحن على مشارف الصهيونية السياسية الرسمية ، التى رفع لواءها تيودور هرتسل ، نلاحظ حركة غليان هائلة فى جميع الأوساط اليهودية فى أوربا وأمريكا . كان اليهود إذ ذاك ينظرون إلى حركات الوعى القومى التى عمت الأوربيين والأمريكان ، منذ سقوط نابليون ويريدون السير فى هذا الركب ، وأن تتبلور لهم هم أيضاً قومية ممتازة . وكانوا ينظرون إلى حركات التصنيع والاستعمار راغبين فى أن يستفيدوا منها مادياً . وبالفعل كانوا قد وصلوا فى ذلك كله إلى نتائج ملموسة ، فمع الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ حصلوا على حقوق الإنسان وفى ظل نابليون وصلوا إلى أن يكون لهم مجلس ملى معترف به من فرنسا ، يرأسه حاخام أكبر تنتخبه الطائفة . وقامت لهم فى ظل الرأسمالية الصناعية الأوربية والأمريكية مؤسسات اقتصادية غنية مزدهرة ، تشتغل بالصناعة والتجارة والمال وأعمال المصارف . ومع رقى الصحافة ، واتساع التعليم ، وتطوير الجامعات ظهر من بينهم علماء ومفكرون ومؤلفون ، قاموا بدور كبير فى بلورة العصبيات الاسرائيلية ، وجمعها تحت شعارات قومية وتاريخية وسياسية كانت الصهيونية آخرها .

فمن رجال السياسة نذكر الوزير البريطانى درزائيلى ، ومن رجال المال والأعمال اشتهرت أُسر أوربية يهودية بأكملها منها روتشيلد وهيرش ، ومن المفكرين وقادة الرأى اليهودى يأتى فى الطليعة الفيلسوف

مندلسون الذى كان من أنصار « الاندماج » أى دخول اليهود فى المجتمع الأُوربى كمواطنين عاديين لهم كل الحقوق ، وعليهم جميع الواجبات . وقد لقيت دعوته رواجاً بين الشبيبة اليهودية فى القرن التاسع عشر ، كما ارتطمت بمعارضة شديدة من المفكرين القوميين ، وفى مقدمتهم الزعيم الاشتراكى اليهودى الأَلمانى موسى هيس ، الذى نشر عام ١٨٦٢ كتابه الكبير « روما وأُورشليم ، أَو « أَحدث مشكلة قومية » يدعو فيه إلى استعمار اليهود لفلسطين . وقد أَكمل المفكر اليهودى ليون بنسكر هذه الدعوة بما سماه ببرنامج « التحرر الذاتى » ، وهو تخطيط سياسى واجتماعى لإخراج اليهود من العزلة ، وانتفاعهم بالازدهار الاستعمارى والرأْسمالى الغربى ، دون أَن يفقدوا قوميتهم أَو يذوبوا فى غيرهم من المجتمعات . وقد ساعد على توطيد مثل هذه الأَفكار فى الأَذهان اهتمام من جانب العلماء والأُدباء والمؤَرخين اليهود بتقديم صورمن التراث الإسرائيلى تهدف إلى تقوية العصبية بين أَبناء قومهم . وممن لا يمكن إغفال ذكرهم فى هذا الصدد المؤَرخ اليهودى الأَلمانى « هنرى جريتش » ، واسمه الكامل « هاينريش صبى هيرش جريتس » المولود فى ٣١ أُكتوبر سنة ١٨١٧ فى بوزنان من أَقاليم بولونيا ، ومات فى ميونخ يوم ٧ سبتمبر سنة ١٨٩١ . وقد عكف عن دراسة تاريخ اليهود منذ البداية إلى القرن التاسع عشر الذى عاش فيه . وفى جميع أَصقاع الأَرض التى طرقتها أَقدامهم قديماً وحديثاً . وأَلف فى ذلك كتابه المشهور « تاريخ اليهود » الذى صدر بالأَلمانية فى عشرة مجلدات ضخمة . وذاع صيت الكتاب ومؤَلفه الذى آلت إليه أُستاذية التاريخ فى جامعة « برسلاو » . وقد ترجم الكتاب إلى الفرنسية

والانجليزية والبولونية والروسية واليهودية « اليديش » والعبرية وتأثر به الرأى العام اليهودى فى العالم تأثراً هائلا كان رد فعله أن ثارت موجة من التعصب الأوربى ضد هذا التكتل اليهودى على أيامه . والكتاب يعتبر ملحمة أدبية أكثر منه تحقيقاً تاريخياً ، وقد أدى دوره كما أراده له مؤلفه ، فألهب شعور اليهود ودخل إلى كل بيت من بيوتهم .

وإذا كانت كل نواحى النشاط التى أبداها هؤلاء العاملون من أبناء الإسرائيليين من أجل قومهم تبدو مشروعة ولا يكاد يكون عليها غبار ، فإن الأمر لم يعد أن يظهر فى نفس هذه الفترة متعصبون لليهودية وصل تطرفهم إلى درجة التآمر الاستعمارى المجرم . وفى مقدمة أولئك اليهودى الفرنسى أدولف كريميه ، واسمه الكامل اسحق موسى أودولف كريميه . وكان مولده فى « نيم » سنة ١٧٩٦ ، ومات بباريس يوم ٩ فبراير سنة ١٨٨٠ وقد نشأ فى بلدته بجنوب فرنسا نشأة عادية واصل فيها تعليمه ، ثم ذهب إلى مدينة « أكس » حيث حصل على ليسانس القانون عام ١٨١٧ ، واشتغل بالمحاماة فى هذه المدينة . وبدأ يبحث عن الشهرة عن طريق المرافعة أمام المحاكم فى القضايا السياسية الكبرى ، التى كانت كثيرة فى فرنسا فى ذاك الوقت . وذاع صيته فانتقل منذ عام ١٨٣٠ إلى باريس ، وأصبح من كبار المحامين المتخصصين فى قضايا الصحافة بالذات ، وهو أمر مكنه من أن يخضع لإرادته أقوى وسيلة من وسائل الإعلام وتحريك الجماهير فى ذاك الوقت . فانتخب عضواً فى مجلس النواب الفرنسى

سنة ١٨٤٢ ووقع عليه الاختيار وزيراً للعدل فى الحكومة المؤقتة لثورة سنة ١٨٤٨ ، ثم أُعيد انتخابه مرة أُخرى عضواً فى الجمعية الوطنية . وبقى يراوغ ويداور سنين طويلة ، عاملا على إحياء القومية اليهودية فى أُوربا كلها حتى ضاقت به السياسة الفرنسية ذرعاً فانكمش طيلة أيام الامبراطور نابليون الثالث ولم يعد إلى الحياة السياسية إلا عام١٨٦٩ حيث نجح بصعوبة فى الانتخابات النيابية وفى دورتها الثانية .

وعندما تكونت فى فرنسا الحكومة التى تسمى حكومة الدفاع الوطنى ضد التهديد الألمانى بقيادة بسمرك ، تولى منصب وزارة الداخلية فيها كما آلت إليه وزارة الحربية مؤقتاً . وظل يتقلب فى أرقى مناصب الدولة حتى أصبح سنة ١٨٧٥ عضوا دائماً فى مجلس الشيوخ .

وهذا الرجل كان طوال حياته يستغل كل الظروف لصالح القومية اليهودية ، حتى إذا تعارضت مع المصلحة العامة أو مع المبادىء الإنسانية كلها . فبمجرد وصوله إلى باريس رشح نفسه لعضوية المجلس الملى لأعلى للطائفة الإسرائيلية وتم انتخابه فعلا . وبسرعة طالب الحكومة الفرنسية بتقرير مرتبات سنوية فى ميزانيتها لرجال الدين اليهود فى جميع أنحاء فرنسا أُسوة بالمتبع مع رجال الدين المسيحى إذ ذاك ، وأُجيب إلى طلبه ، وفى سنة ١٨٣٢ ، وكانت فرنسا قد منحت لأبنائها المقيمين بسويسرا جميع حقوق المواطن العادى ، طلب مثل هذه الحقوق ليهود سويسرا النازحين من فرنسا وحصل عليها . أما احتكاكه بالعرب والمسلمين فقد بدأ رسمياً على أثر ما يسمى فى التاريخ اليهودى « تهمة الدم » فى دمشق يوم ٥ فبراير سنة ١٨٤٠ ، كانت سوريا إذ ذاك

تحت حكم والى مصر محمد على باشا . وكان يمثله فى دمشق شريف باشا فحدث أن اختفى أحد الرهبان الفرنسيسكان الكابوشيين وهو الأب توما . فشاع فى المدينة كلها أن اليهود خطفوه ليقتلوه ويعجنوا بدمه خبزهم الخاص بطقوس عيد الفصح . ولم يستبعد قنصل فرنسا فى دمشق هذه التهمة . كما أن الحكومة الفرنسية لم تتحرك تحركاً يرضى اليهود .

والواقع أن « تهمة الدم » لم تكن الأولى فى تاريخ اليهود ، على الرغم من أن الدم محرم فى شريعتهم بالنص ، وأن دم البشر أشد تحريماً لأنه دم كغيره من الدماء من ناحية ، ولأن سفكه واقع تحت وصية من وصايا موسى العشر إذ يقول « لا تقتل » ولكن تكررت التهمة فى أماكن كثيرة من العالم يصعب أن يقع بينها تواطؤ أو اتفاق لتباعد الزمن والمكان : من أوائل العصور الوسطى إلى العصر الحديث ، وفى إيطاليا ، وانجلترا ، وإيران ، وفرنسا ، وألمانيا . . . الخ . وإذا كان بعض هذه التهم يعتبر افتراءً سببه التعصب ضد اليهود ، فإن كثيراً منها يبدو دامغاً لليهود ، بسبب ما كانوا فيه من ظلمات الجهل بدينهم ، والتعلق بكثير من البدع والخرافات التى لعب فيها حقدهم على البشر دوراً كبيراً . ومهما يكن من شيء فلسنا هنا بمعرض البحث عن دم الراهب توما ، ولكننا نقرر فقط أن الفتنة اشتعلت فى العاصمة السورية ، فقام شريف باشا بالقبض على سبعة من رؤساء الطائفة للتحقيق معهم ، ولا شك فى أنه أغلظ لهم العذاب ، حتى مات أحدهم وهو محتجز للتحقيق ، ودخل آخر فى الإسلام ليقسم على

القرآن أنه لا يعرف شيئاً عن هذا الأمر. ويقول اليهود: إن حكومة شريف باشا حصلت على اعترافات من اليهود أنفسهم أدت إلى وضع عدد منهم فى السجن من بينهم بعض رجال الدين. وهنا قام أدولف كريميه عن طريق الصحافة والاجتماعات اليهودية بخلق كتلة إسرائيلية أوربية تضم يهود انجلترا، وفرنسا، وألمانيا، والنمسا، وشرع فى مهاجمة محمد على، ومعه الإسلام كله وراح وهو المحامى المشهور يطالب والى مصر بالاعتذار عما حدث فى سوريا ودفع تعويض ضخم للطائفة الاسرائيلية. وكانت الدول الأوربية إذ ذاك تتلمس العلل لخلق المشاكل لمحمد على ليجدوا منفذاً لسياستهم الاستعمارية فى الشرق.

وأراد والى مصر أن يتجنب المشاكل، فكتب إليه اعتذاراً، وطلب منه الحضور لمقابلته بالاسكندرية وتسلم المبلغ المطلوب للتعويض. فكون وفداً انضم إليه فيه المليونير اليهودى البريطانى مونتفيورى والمستشرق اليهودى الفرنسى المتبحر فى الشئون العربية سالمون مونك. ومن الاسكندرية ذهب الثلاثة إلى فلسطين وأسسوا بالمبلغ الذى حصلوا عليه مستعمرة يهودية على مشارف النقب الشمالى بالقرب من مدينة عسقلان، وافتتحوا بها مدرسة لتخريج المهندسين الزراعيين المدربين على استصلاح الأراضى، لتكون نواة الاستعمار اليهودى فى قلب العالم العربى.

وهذا الرجل هو نفسه الذى أصدر القانون الخاص بيهود الجزائر بعد احتلال فرنسا لها، وهذا القانون يقضى بمنح الجنسية الفرنسية، والامتيازات الخاصة بالمستعمرين لكل اليهود الذين يعيشون فى القطر

الجزائرى ، وكان هدفه من ذلك هو تمكين هذه الجموع الكبيرة من اليهود المغاربة ؛ من أن يكونوا عملاء للاستعمار الفرنسى فى شمال إفريقيا : وهو القانون الذى توسعت فيه فرنسا عند احتلالها لتونس والمغرب الأقصى ، فطبقته على اليهود هناك أيضاً ، وكان من أثر ذلك أن تعقدت الأمور بين العالم العربى والإسلامى وبين فرنسا عند إعلان دولة إسرائيل وتحت ضغط الرأسمالية اليهودية الفرنسية ، مع ما صحب ذلك من نضال المغرب العربى كله ضد المستعمرين . والذى يكشف الارتباط العضوى بين الاستعمار والتعصب اليهودى فى المغرب العربى هو هذه الهجرة الجماعية ليهود الجزائر يوم إعلان استقلال هذه البلاد لشعورهم بكل المؤامرات التى كانوا مسئولين عنها طيلة عهود الاستعمار .

وأدولف كريميه هو أيضاً الذى أعطى كل جهوده لتدعيم الجمعية المسماة بالاتحاد الاسرائيلى العالمى ، وهى ما تزال إلى الآن تمارس نشاطها فى جميع أنحاء العالم بما فى ذلك الكثير من البلاد الإسلامية بل بعض البلاد العربية وهذه الجمعية اليهودية العالمية تسعى إلى خلق اليهودى الصهيونى المتعصب عن طريق تربية أطفال اليهود فى مدارسها المنتشرة فى كل مكان ، وكانت دائماً تنسق جهودها مع الأهداف الصهيونية فى فلسطين بجمع التبرعات لإقامة دولة إسرائيل فيها والإشراف على اختيار المهاجرين والمتطوعين ، ونشر الوعى بالمنجزات اليهودية عن طريق الصحف والندوات والحفلات ، كما كانت وراء كثير من المؤامرات الاستعمارية فى العالم العربى والإسلامى .

لمحة سريعة إلى المستقبل

وبعد فإن المتتبع لتاريخ اليهود عبر العصور سيجد أن دولة إسرائيل المغروسة بالإكراه فى قلب العالم العربى ، هى الخلاصة العصرية للتعصب اليهودى الكامن المنقوع فى الأحقاد العنصرية المريضة : التى حرص هذا المجتمع الغريب على تنميتها .

وهى تقوم على استقراء هذا التاريخ ، وتطبيق الوسائل الجهنمية الهدامة التى أثبتت قوتها فى تجارب مختلفة على مر الزمان . وهى كلها تتلخص فى أن من يسمون أنفسهم « شعب الله المختار » يدركون فى قرارة أنفسهم أنهم وعددهم لا يتجاوز فى العالم كله الخمسة عشر مليوناً لن يتمكنوا من السيطرة على هذا العالم وتحقيق حلمهم الرهيب فى استعباده إلا إذا رضوا أن يكونوا عملاء وأذناباً وكلاباً حراسة لا تتمتع بقوة العدد وإمكانيات العلم والمال . ولا يهمهم أى الأمم هذه ، فقد تعاونوا قديماً مع الفراعنة ثم انقلبوا عليهم وراحوا ينافقون إمبراطوريات العراق القديم ، ثم خانوها مع إيران عندما قويت شوكة الفرس ، ثم عادوا فانقلبوا عليهم وخضعوا للاسكندر اليونانى ، وطالت مراوغتهم للرومان حتى ضاقوا بهم ذرعاً فاقتلعوهم اقتلاعاً . وبقى النهج القديم والداء القديم أيضاً ، ينموا فى قلوبهم المظلمة ، فما إن ظهرت أول حركة استعمارية فى العصر الحديث بزعامة نابليون بونابرت حتى خطبوا ودها ، ومن بعدها الاستعمار البريطانى ، وتغزلوا كثيراً فى القوة الشيوعية الناشئة فى روسيا وأوربا الشرقية حتى إذا نالوا منها أقصى

ما يستطيعون انقلبوا نحو الاستعمار الأمريكى الجديد فربطوا سياستهم بسياسته الظالمة المتجبرة . وبين العصور القديمة والعصر الحديث رأينا الأيام الجميلة المعسولة التى قضوها فى أحضان العرب والمسلمين طوال العصور الوسطى ، مستفيدين لأنفسهم من ذلك أثمن ما كانوا يحلمون به وهو إحياءُ التراث العبرى والنجاة من الفناءِ والحصول على ركائز من الغنى والجاه ولن يدهشنا أن نراهم غداً فى إسرائيل ، وقد اكتشفوا المخلب السحرى الذى يشبكون به كيانهم فى قوة هائلة من قوى المستقبل هى الصين الشعبية ، أو أن نراهم بعد غد حلفاءَ لطاقة علمية واقتصادية عظيمة كاليابان ، أو نراهم فى مستقبل ما قريب أو بعيد ، وقد استطاعوا أن يوحدوا بين وجودهم ووجود العرب والمسلمين كل هذا ممكن وليس عجيباً منهم ما دام رائدهم هو المصلحة الخاصة لعنصرهم فقط على حساب جميع العناصر البشرية التى لا يضيرهم فى شىء أن يضحوا بها .

وقد قيل عنهم فى كثير من المجتمعات الأوربية : إنهم يمثلون فى العالم « الأقلية الساحقة » وهى سخرية تتعدى حدود النكتة البسيطة إلى الإشارة إلى خطورة هؤلاءِ الناس على المجتمع البشرى كله والمتتبع لخطب قادتهم وزعمائهم فى أيامنا هذه يلاحظ سرعتهم جميعاً فى التلويح بالحلول الجهنمية ، والتهديد بالدمار الشامل إذا هم لم يصلوا إلى تحقيق أغراضهم بكل أسف لا نهاية لها ، ولا حدود تقف عندها ، ولا حتى من النيل إلى الفرات . إن إذلال الإنسانية كلها ، واستعبادها لإسرائيل أمر مغروس فى العقل الباطن لهؤلاءِ الناس . وهم يقولون إن شعب الله المختار ، بكل نقائه وامتيازه وعظمته وجلالته ، قد أصبح

مستعبداً لفرعون ، ثم سبياً مستباحاً لبختنصر ، ثم ضحايا الرومان ثم حطباً لنيران الهتلرية ، فماذا على العالم لو انعكست الآية ؟ وهم وراء كل هذا يقولون دائماً إذ، إذا كان على إسرائيل أن تنهار فإن عليها أيضاً أن ينهار العالم معها في نفس الوقت

وهذا تهديد صريح للسلام العالمي يجب أن تفهمه الإنسانية كلها في أبعاده الجدية الحقيقية .

أما فيما يعنينا نحن العرب وأمم الإسلام ، فإن الجولات السابقة مع الصهيونية ، وهي جولات سلبية النتائج على طول الخط . لا بد أن تعلمنا شيئاً هاماً أشرنا إليه منذ البداية وهو أن زوال إسرائيل أمر ضروري لحرية العالم العربي والإسلامي وازدهاره ورقيه وأن النتائج السلبية التي واجهناها لا تعني على الاطلاق أن نتزحزح عن هذا الهدف الأساسي ، كما يبدو من صنيع بعض المفكرين منا ، الذين يحاولون أن « يتأقلموا » في الوجود الصهيوني الاسرائيلي الاستعماري . إن مشكلة الان هي أن يتحول زوال الصهيونية عن وطننا من هدف تكتيكي استراتيجي . أي أننا نعمل له مهما طال المدى ، تماماً كما عمل اليهود لإنشاء إسرائيل ، والمهم هو ألا يغيب عن أنظارنا ، وألا تلهينا عنه ، أو تميته في ضمائرنا ، الحلول البديلة أو التسويات الوقتية وما تعد به من أمن وراحة واسترخاء . زوال الصهيونية في هذا الركن من العالم أمانه في أعناق العرب والمسلمين مهما استغرق ذلك من أجيال . ونحب أن نقول في النهاية : إننا لا نعني بزوال إسرائيل من المنطقة وزوال الصهيونية من العالم ، إبادة اليهود أو الدعوة إلى إفنائهم ، أو حتى

اضطهادهم والتعصب ضدهم ، ولكننا نقول كما قال الكثيرون من المستنيرين منهم : إن اليهودى إذا شفى من حقده على العالم استطاع أن يجد له وطناً فى كل مكان ، كالمسيحى والمسلم والبوذى والزنديق ، وهو وراء ذلك كله واجد وطنه القومى والروحى فى التوراة والتلمود ، كما يجده المسلم فى الكتاب والسنة ، والمسيحى فى الانجيل وأعمال الرسل . وقد عرف الإسلام قديماً كيف يشفى قلوب اليهود المريضة بحيث تم التآخى بين الأمتين فى ظل الراية العربية ، لا المسلم يجور على اليهودى ولا اليهودى ينال من المسلم ، وكان ذلك عصراً ذهبياً باعتراف كل أقطابه ومفكريه ، وإنما بدأت اليهودية تتردى إلى الحضيض عندما ضعف أمر العرب ، وتمزق ملك المسلمون ودبت الفتن فى مجتمعهم هنا وجد اليهودى نفسه بلا ولى ولا نصير . وقد يجد نفسه فى مثل هذا الموقف فى فلسطين فى المستقبل القريب أو البعيد ، إن ظل محترفو الصهاينة هم القادة الذين يقررون مصير قومهم فى إسرائيل ، حينئذ سيكون الأمر أخطر من مجرد صراع بين اليهود والعرب ، لأنه سينتهى حتما إلى كارثة عالمية لا يعلم أبعاد الدمار فيها إلا الله .

القدس

مدينة الله ... ؟ أم مدينة داود ... !

بقلم

الأستاذ الدكتور حسن ظاظا

كلية الآداب — جامعة الاسكندرية

من الحاضر إلى المـاضى

لإسرائيل أُسلوب لا يعوزه الدهاء فى السياسة التى تنتهجها فى مشكلة الشرق الأَوسط ، وهو أُسلوب تحاول به أَن يطول بقاؤها بفلسطين ، فى عالم يتميز بأَن عمر الاستعمار فيه قصير ، وحياته فى البلاد التى يتشبث بها رهيبة مرة لا راحة فيها ولا اطمئنان . وأُسلوبها هذا مبنى على « التعقيد » ، والانحراف بالمسائل عن الطريق الواضحة المستقيمة بإِثارة مشاكل جانبية مفاجئة ، من الأَفضل لدى قادة الصهيونية أَلا ترتبط بفن تنسيق العلاقات الدولية ، والدخول إليها من أَبوابها الواسعة ، بقدر ما ترتبط بغيبيات مظلمة ، وأَساطير متنكرة فى ثياب التاريخ ، و « ميتافيزيقيات » غير إنسانية ، إن لم تنجح فى خداع العالم بصورة نهائية فإِنها ، على الأَقل ، تجره فى دوامتها السحرية مدة من الزمن تطول أَو تقصر بحسب الظروف . وإسرائيل تخترع هذه « العقد » وتفتعلها بتوقيت دقيق بحيث تتراكم وتتراكب حتى تصبح ملفات « مشكلة الشرق الأَوسط » فى مكاتب هيئة الأُمم المتحدة ، وأَرشيفات وزارات الخارجية فى العالم أَشبه بمجلدات التلمود ، التى لا تدعك تنفذ من اعتراض إلا لتقع فى إشكال ، أَو تنزلق فى شبهة ، أَو تنساق إلى نقاش كلامى طويل ، ينتهى بأَن تصرخ متسائلا وقد كادت أَعصابك تنهار : والآن . . . أَين القول الفصل ؟ . . أَين الحلال والحرام ؟ وهيهات أَن تجد جواباً ! وليس أَشد إزعاجاً لكهنة السياسة الاسرائيلية فى قديم الزمان

وحديثه من « القول الفصل » ، ومن الحل العادل المنطقى الإنسانى المباشر ، وكلما ظهر فى طريقها من يكشف لولبيتها ، وتعقيدها هذا للبسيط من الأمور ، مما لا يدع لها مجالا للمغالطة والتهريج ، لجأت معه إلى الجريمة . . إلى القتل : هكذا كان موقفهم قديماً من نبيهم أرمياء ، ومن يوحنا المعمدان ، ومن عيسى المسيح ، وهكذا إلى أن نصل حديثاً إلى اغتيال اللورد « موين » وزير المستعمرات البريطانى أثناء الحرب العالمية الثانية ، والكونت « برنادوت » السكرتير العام لهيئة الأمم المتحدة ، وما لا يحصى غيرهم من ضحايا الظلاميات الإسرائيلية المطبقة

وهناك « عقدة » ظل الإسرائيليون يدخرونها للوقت الذى يصل بهم الحرج فى ميدان السياسة الدولية إلى ذروته ، وهى القدس . فمنذ بدأ المشروع الصهيونى المعاصر نشاطه فى أواخر القرن الماضى ، والقائمون عليه يحتاطون جداً فى لمس هذه العقدة ، حتى اضطروا طوال مدة مديدة إلى أن يتزودوا لها بوجهين يقولان كلامين مختلفين بحسب المستمعين.

الوجه الأول : هو الوجه اليهودى القح الذى يتكلم إلى اليهود الإقحاح فلا يترك قسماً غليظاً ولا قولا معسولا فى الاستيلاء على القدس ، و « تطهيرها » من الإسلام والمسيحية إلا قاله . ولا يكاد ينعقد اجتماع صهيونى كبير أو صغير ، من اللقاء العابر المرتجل فى بعض الأعياد أو المناسبات ، إلى المؤتمرات الصهيونية العالمية ، حتى يطلق اسم « أورشليم » مرات ومرات ، وسط الحماس المتهوس الذى لا يعرف له رأساً من رجلين . . وأبسط ذلك وأقربه منالا هو الترنم بنص من

المزامير (مزمور ١٣٧/٥/٦) يقول: «إن نسيتك يا أورشليم فلتنسني يميني. ليلتصق لساني بحنكي إن لم أذكرك، إن لم أرفع أورشليم على قمة ابتهاجي» ويقال: إن تيودور هرتسل - زعيم الصهيونية الحديثة - كان قد وافق على اقتراح السياسي البريطاني «تشمبرلين» الكبير في إعطاء اليهود وطناً قومياً في أوغنده بوسط أفريقيا، ولكن غلاة الصهيونية ثاروا على زعيمهم، واعتدوا على مساعده «ماكس نورداو» بالرصاص، واتهموا «هرتسل» نفسه بالخيانة، وعند اجتماع المؤتمر الصهيوني العالمي السادس بدأوا يهتفون ضده من القاعة حتى إذا ما بدأ ينشد «إن نسيتك يا أورشليم» . . . نسوا هم كل شيء، وصفا له الجو، وسلمت له الزعامة، بعد أن سلمت لهذه الجماعة الهستيرية «مدينة داود».

وأما الوجه الثاني، فتلتفت به الصهيونية إلى الأمم الأخرى، تلتفت لتقول لهم كلاماً معسولاً أيضاً عن «المدينة المتحف»، «المدينة المقدسة» لكل الملل والأديان، «مدينة الله». وكانت إسرائيل بهذا الوجه تستجدي رضا الرأي العام المسيحي في أوروبا وأمريكا وتحذر الرأي العام الإسلامي في إفريقيا وآسيا، وتتهرب من نقمة العلمانية واللاعنصرية في العالم أجمع.

وهكذا جعلوا عاصمتهم أولا «تل أبيب» لا «القدس» وقنعوا من إرضاء بسطاء اليهود في العالم ببناء «أورشليم جديدة» على أطراف المدينة التاريخية تتكون من بضعة أحياء إلى الغرب والشمال أشهرها «رحبيا» و «محني يهودا» و «كرم إبراهام» ثم أضافوا إليها

أحياء عربية اغتصبوها بالإرهاب مثل « البقعة » و « القطمون » و « بيت صفافا » وغيرها . وجعلوا فى حكومتهم وزارة خاصة اسمها « وزارة الشئون الدينية » ، ورضوا بأن تبقى المدينة القديمة « القدس الشريف » بالمسجد الأقصى وكنيسة القيامة وغيرهما من المعالم والمشاهد المسيحية والإسلامية المقدسة جزءًا من المملكة الأردنية يفصله عن إسرائيل سور معترف به كحدود دولية من هيئة الأمم المتحدة .

ثم خطت الصهيونية خطوتها الجريئة فى حرب يونيه ١٩٦٧ فأزالت هذا السور واحتلت القدس التاريخية ضمن ما احتلت — وما تزال — من الأراضى العربية داخل حدود الأردن وسوريا والجمهورية العربية المتحدة ، وتسرعت فأعلنت « توحيد القدس » أى ضم القدس الشرقية — وهى المدينة العربية التاريخية — إلى « أورشليم الجديدة » ، وإدخالها فى مخطط « تهويد » معلوم مرسوم . ولكى يبتلع العالم كل هذه المغلظات دون صياح كثير؛ قسم قادة الصهيونية أنفسهم إلى « جوقات » كل منها يتجه بصوته جهة خاصة يلقى فيها بالبيانات والتصريحات المناسبة : « بن جوريون » و « موسى ديان » وبقية « الكورس القومى » يعلنون أنه لا إسرائيل بدون القدس التاريخية ، « مدينة داود » ، وأن الحائط الدولى الفاصل بين القدس القديمة شرقاً ، والجديدة غرباً؛ كان وصمة فى جبين الشعب اليهودى ، وأن المدينة كلها يهودية مائة فى المائة بماضيها ،ولا بد أن تصير كذلك فى مستقبلها . وفى نفس الوقت يقف فى الجهة الأخرى « الكورس الدبلوماسى » بقيادة « أبا إيبان » و « إيجال آلون » ليؤكد أن

القدس « مدينة الله » وأن المعالم المقدسة فيها لها حصانة سماوية لا يمكن المساس بها ، وأن المدينة المقدسة مفتوحة على مصراعيها للناس جميعاً من كل الملل والنحل وأنها ستظل كذلك .

وتترسب فى الرأى العام العالمى ، فى العقل الباطن للناس ، انطباعات هى وحدها التى أرادها اليهود ، أنهم أصحاب الحق الشرعى والتاريخى الأول فى هذه المدينة ، وأنهم لا يتكلمون من مركز القوة فحسب ، بعد نكسة يونية ١٩٦٧ ، بل من سجلات التاريخ أيضاً . وكاد العالم أن يبتلع ما شاعت الصهيونية بدون صياح كثير .

ثم تشتد المقاومة الفلسطينية فى كل مكان ، وتصمد الأمم العربية الواقفة على خط المواجهة ، ويطول صمودها بما يخيب ظن إسرائيل ، بل أنها لا تكتفى بالدفاع المتكافىء عن مواقعها فتلقن القوات الإسرائيلية الضاربة ، كلما حدث إشتباك ، درساً فى ضرورة التروى والتفكير الطويل قبل الدخول فى اشتباكات أخرى ، وتخرج من جزع الهزيمة ومرارة الدفاع المستميت إلى إمكانيات التخطيط للمستقبل ، ويبدأ ذلك بتنسيق كامل بين الجبهات الثلاث ، ثم بينها وبين قيادة الكفاح الفلسطينى المسلح ، على نحو يجعل الغلاة من قادة الصهيونية قلقين على المستقبل جداً . فالانتصار السهل فى معركة محلية خاطفة ، قد حل محله خطر الحرب الشاملة إذا هم أصروا على طلباتهم ، والوقوف خلف المدافع عند خطوط وقف إطلاق النار سنين طويلة ، سيهز الصورة الرائعة التى رسمتها الدعاية الصهيونية للجيش الإسرائيلى الذى لا يغلب بين جماهير اليهود الطيبين البسطاء فى العالم ، الذين يعيشون على

رومانسية عسكرية حالمة، تستمد عناصرها من قصة داود وتغلبه على العملاق جالوت ، هذا فضلا عن أن وقوف السنين الطوال خلف المدافع سيحد أيضاً من الإنتاج ، وسيصيب بالعقم والجرب مواسم الحج والسياحة ، وسيتطلب المليارات من الليرات الإسرائيلية ثمناً لهذا الترف الذى تتحاشاه أكبر الأمم وأغناها ، وسيترك لحلفاء إسرائيل والواقفين وراءها فرصة طويلة للتأمل والتفكير الهادئ فى المصالح الحقيقية والدائمة لشعوبهم ، ستنتهى غالباً بانفضاضهم عنها كلياً أو جزئياً . وقد بدأ ذلك فعلا بتخلى فرنسا عن تبنيها للصهيونية ، وأعقب ذلك انكماشاً من جانب انجلترا وإيطاليا وتركيا والأرجنتين وغيرها من دول العالم فى موقفها من الصهيونية .

فى وسط هذا الدخان الكثيف ، يشب حريق المسجد الأقصى ، ولأمر ما تحرص إسرائيل على أن تعلن منذ بداية التحقيق أن المسئول عن هذه الجريمة « مايكل روهين » ليس يهودياً ولا إسرائيلياً بل شاب استرالى من أتباع طائفة مسيحية متطرفة ، ولكن العالم لا يبتلع ذلك بسهولة ، ويبدأ القلق ، لا بين المسلمين وحدهم ولكن بين جماهير العالم المسيحى أيضاً . وتذهب إسرائيل فى الاعتذار عن أقل ما يمكن اتهامها به وهو؛ الإهمال فى القيام بمسئولياتها عن أمن الأماكن المقدسة وسلامتها كل مذهب . ولكن حججها تبدو واهية هزيلة لا تفلح فى إزالة القلق الشديد من نفوس غير اليهود فى الشرق والغرب . ويقوم وزير خارجيتها « أبا إيبان » بجولاته التقليدية ، لا يألو فيها جهداً ، حتى يصل إلى الفاتيكان وإلى لقاء قداسة البابا بولس السادس نفسه

ولكن المقابلة « التاريخية » لا تأتى الا بنتائج « سلبية » . وتعلن رئيسة الوزراء السيدة « جولدا مائير » عن عزم الحكومة الإسرائيلية على ترميم المسجد الأقصى على نفقتها ـ مجرد عملية تخريب ناجحة بكل أسف ، لمؤتمر القمة الإسلامى .

كل هذا « والعقل الباطن » للعالم كله مايزال ينقع فى تاريخ فولكلورى مؤداه كما قلنا أن القدس « مدينة داود » وأن مايحدث فيها الآن ـ على بشاعته ـ هو صراع بين « ظواهر » طارئة وبين تاريخ قديم يريد أن يعيد نفسه . فلنعد إذن إلى التاريخ ولنتركه يقول ماعنده باختصار .

أورشليم (القدس) قبل العبريين

أقدم النقوش التى ورد فيها ذكر هذه المدينة موجودة عندنا فى المتحف المصرى بالقاهرة ، فى مجموعة اللوحات المكتوبة بالخط المسمارى واللغة البابلية (لغة العراق القديم) تتخللها شروح باللغة الكنعانية (لغة فلسطين القديمة) . وهذه النقوش تسمى « لوحات تل العمارنة » وقد عثر عليها فى أوائل القرن العشرين فى هذه المنطقة من محافظة أسيوط ، وهى وثائق دبلوماسية ترجع إلى عهد الفرعون أمنو فيس الثالث (من ١٤١١ إلى ١٣٧٥ قبل الميلاد) وابنه اخناتون (١٣٧٥ ـ ١٣٥٠ ق . م)

تسمى أورشليم (القدس) فى هذه النقوش « أورو سالم » . ففى رسالة كتبها « عبد يحيبا » إلى أمينو فيس الثالث نجد أن الأول هو حاكم القدس « أورو سالم » من قبل فرعون ، وأنه يستنجده بمدد

عسكرى لصد غارات شراذم من الغجر الرحل اسمهم « حبيرو » اتفق الباحثون على أنهم « العبريون » كما ذكر ذلك الاثرى « بندلبورى » الذى أشرف زمناً طويلا على الحفائر فى هذه المنطقة وألف فيها كتابه المشهور « حفائر تل العمارنة » . ويقول المؤلف نفسه أن معبد «آتون» فى تل العمارنة بخطته المعمارية المتميزة ، وبالخلفية الدينية التى جعلته قبلة للناس كافة هو الذى ألهم بناة المعابد فى بلاد النوبة ، والآسيويين فى أورشليم فكرة « المعبد المركزى » أو « المعبد القبلة » الذى يتجه إليه الناس جميعاً فى صلاتهم ويأتون إليه فى حجهم .

نجد اسم أورشليم بعد هذا التاريخ يتكرر فى لغات أخرى ، ففى نقوش الامبراطور الآشورى سنحاريب (حوالى ٧٠٠ ق . م) يرد اسمها هكذا « اوروسليمو » وفى العبرية « يروشالايم » وفى النقوش اليونانية من عهد الاسكندر الأكبر (حوالى ٣٣٠ ق . م .) وردت بلفظ « هيروسوليما » أو « سوليما » باختصار ، وانتشر اسمها من الكتاب المقدس فى جميع لغات العالم تقريباً .

أما اسم « القدس » فلابد أنه رافق المدينة منذ بداية تاريخها . أى منذ ما قبل العبريين عندما أقيمت فيها لأول مرة أماكن مقدسة خاصة ببعض العبادات القديمة ، وعلى أية حال فإن المؤرخ اليونانى هيرودوت (٤٨٤ ـ ٤٢٥ ق . م .) لم يذكر فى تاريخه المشهور اسم أورشليم ولكنه ذكر مدينة كبيرة فى الجزء « الفلسطينى » من الشام وسماها (قديتس) مرتين فى الجزء الثانى والثالث من تاريخه ، ويقول المستشرق اليهودى الفرنسى « سالومون مونك » فى كتابه « فلسطين »

إن هذا الاسم على الأرجح هو « القدس » محرفاً فى اليونانية عن النطق الآرامى « قديشتا » . وحتى اليهود فى الكتاب المقدس قد أطلقوا عليها أحياناً اسم « مدينة القدس » (اشعيا ٤٨-٢ ، نحميا ١١-١) ، و « جبل القدس » (اشعيا ٢٧-١٣) كما سميت « مدينة الله » (المزامير ٤٨-١) « مدينة الحق » (زكريا ٨-٣) .

واسم « أورشليم » ليس عبرياً أصيلا ، فقد كانت تحمل هذا الاسم قبل دخول العبريين إليها بشهادة نص تل العمارنة ، وبدليل أن اليهود وجدوا صعوبة فى كتابة اسمها باللغة العبرية « يروشالايم » فهذه الياء الواقعة قبل الميم الأخيرة لم تكن تثبت فى الكتابة العبرية ، وقد كتبت بدونها فى أسفار العهد القديم ٦٥٦ مرة وكتبت بها ست مرات فقط ، ولذلك نص علماء التلمود على وجوب كتابتها بالاياء (التوسفتا كتاب الصوم « تعنيت » ١٦-٥) .

أما معنى « أورشليم » فمختلف فيه أيضاً ، وأرجح الآراء من الناحية العلمية أنها مركبة من « أور » بمعنى موضع أو مدينة و « شالم » وهو اسم اله وثنى لسكان فلسطين الأصليين هو « إله السلام » — يالسخرية التاريخ ! . فالمدينة إذن كانت مكرسة لاله السلام حتى وصل العبريون . وهناك من يقول : إن كلمة « أور » معناها الميراث ، فيكون « أورشليم » بمعنى ميراث السلام . أما أحبار اليهود فيدعون أن سام بن نوح قد سماها « شلم » أى السلام وأن إبراهيم الخليل قد سماها « يرأه » وهى بمعنى الخوف باللغة العبرية فقرر الله أن يسميها بالاسمين جميعاً « يرأه — شلم » أى « أورشليم » بمعنى الخوف والسلام (المدراش—

الشرح الكبير على سفر التكوين « بريشيت ربا ـ ٥٧ » وبنوا على هذه التخريجات الفولكلورية عقائديات رهيبة حول السلام المتولد عن الرعب . وقيل أيضاً أن « يرو » يمكن أن تكون فى اللغات السامية بمعنى « إله » ويكون اسم المدينة بكل بساطة « إله السلام » .

ولو توفرت الأدلة على أن سام بن نوح هو الذى سمى المدينة باسمها ؛ لوافقنا أحبار اليهود على أن المدينة نفسها ترجع إلى عهد سيدنا نوح ، ولكن لم يقل أحد غيرهم بذلك ، حتى التوراة نفسها فإنها تتحدث عن « أورشليم » لأول مرة فى زمن إبراهيم (حوالى سنة ١٩٠٠ ق . م .) وكان اسمها « شاليم » فقط ، وكان ملكها من سكان فلسطين الأصليين ، ويبدو من السياق أنه كان يحكم حكماً دينياً ، تقول التوراة (سفر التكوين ١٤–١٨) « وملكيصدق ملك شاليم أخرج خبزاً ونبيذاً ، وكان كاهناً لله العلى ، وباركه وقال : مبارك ابرام من الله العلى مالك السماوات والأرض » . فاورشليم (القدس) كانت مدينة مباركة لله العلى من قبل داود بل من قبل إبراهيم أيضاً .

وعلى عهد يوشع بن نون خليفة موسى (حوالى ١٤٥٠ ق . م .) كان العبريون قد أصبحوا بعشائرهم التى تهدد أمن المدن الفلسطينية خطراً يحسب حسابه ، ويؤكد ذلك نص تل العمارنة الذى أشرنا إليه . لذلك نجد تحالفاً يعقد بين أمراء الفلسطينيين على أثر انتصار يوشع بن نون فى أريحا وعاى وجبعون ، (يوشع ١٠/٣/٤) «فأرسل أدونيصدق ملك أورشليم إلى هوهام ملك حبرون (الخليل) ، وفرآم ملك يرموت ، ويافع ملك لكيش ، ودبير ملك عجلون » . ولكن

يوشع بن نون ينشر الرهبة فى كل فلسطين فتخضع له بعض البلاد ويحاربه البعض الآخر ، ويصالحه فريق من « الخائفين » على امتيازات معينة يتنازلون عنها للعبريين . وكانت « أورشليم » من المدن الفلسطينية التى قاومت الغزو قروناً طويلة . فمثلا نجد يوشع بن نون نفسه يجعلها فى نصيب قبيلتى بنيامين ويهوذا من أسباط بنى إسرائيل ، لكنهما لم يستطيعا — ولمدة طويلة جداً — طرد سكانها الأصليين « اليبوسيين » وهم إحدى القبائل الفلسطينية القديمة ، (يوشع ١٥/٦٣) : « وأما اليبوسيون الساكنون فى أورشليم فلم يقدر بنو يهوذا على طردهم ، فسكن اليبوسيون مع بنى يهوذا فى أورشليم إلى هذا اليوم » . والمقصود اليوم الذى يروى فيه الراوية هذه الوقائع عن يوشع وبعد وفاته بمدة علمها عند الله . وبعد موت يوشع بن نون أعاد سبط يهوذا الكرة على أورشليم ، « وحارب بنو يهوذا أورشليم وأخذوها وضربوها بحد السيف وأشعلوا المدينة بالنار » ، سفر القضاة ١/٨) . أما سبط بنيامين فإنهم فشلوا كذلك فى طرد اليبوسين وسكنوا معهم « إلى هذا اليوم » (قضاة١ / ٢١) .

لذلك بقيت أورشليم تسمى « يبوس » أو « مدينة اليبوسيين » كما جاء فى سفر القضاة (١٩) ، وفى هذا الموضع نجد نصاً يستحق الانتباه ، حين يقول فى سياق القصة التى يرويها : .... « وفيما هم عند يبوس ، وقد انحدر النهار جداً ، قال الغلام لسيده : تعال نميل إلى مدينة اليبوسيين هذه ونبيت فيها . فقال له سيده : لا نميل إلى مدينة غريبة حيث لا أحد من بنى إسرائيل هنا » .

وسنرى أن المدينة المقدسة ظلت إلى عهد داود لليبوسيين ، سكانها الأصليين من شعب فلسطين . ومعروف أن داود عاش حوالى سنة ألف قبل الميلاد ، وبالتالى ظلت مدينة « السلام » من أول ما لقيناها فى التوراة على أيام إبراهيم إلى تلك الفترة ـ نحو ألف سنة ـ تقاوم التسلل العبرى ، والمطامع اليهودية ؛ فلا ينال الإسرائيليون منها الا بالتخريب والإحراق حيناً أو بالمساكنة والتعايش السلمى أحياناً .

ومع داود فقط تبدأ « عقدة أورشليم » مدينة الله ومدينة السلام ومدينة اليبوسيين الفلسطينيين منذ . . . منذ ما قبل التاريخ كما أثبتت ذلك أحدث الحفائر التى أجريت فى المنطقة . ومن المستحسن قبل أن نخطو الخطوات الأولى نحو « أورشليم اليهود » أن نتصور ـ بما يمكن من ايجاز ووضوح ـ طبيعة اقليم القدس وموقعها .

تقع القدس على خط عرض ٣١° ٤٦َ ٤٥ً شمال خط الاستواء وعلى خط طول ٣٥° ١٣َ ٢٥ً شرق جرينتش ، وهى هضبة غير مستوية تماماً يتراوح ارتفاعها بين ٢١٣٠ ، ٢٤٦٩ قدماً . وجوها قارى صحراوى إلى حد كبير ، فالحرارة فيها قد تتجاوز ٣٠° صيفاً وقد تنزل إلى خمس درجات تحت الصفر شتاء ، كما أن التفاوت فى الحرارة كبير بين النهار والليل ، ومطرها شتوى متوسط . ورطوبتها متوسطة أيضاً . ويندر بها الثلج . وليس بها أنهار ، وإنما تحيط بها عيون كثيرة تتفاوت فى غزارة الماء وصلاحيته للشرب . وتندفع من بعض هذه العيون جداول موقتة بهطول الأمطار . وكانت المدينة إلى عهد ليس بالبعيد تعتمد أساساً على تجميع مياه الأمطار فى صهاريج

وآبار أُعدت لهذا الغرض ، وأعلى مرتفعاتها يوجد على حافاتها الشرقية والجنوبية الغربية والشمالية ، ولذلك اعتبرت منذ القدم موقعاً استراتيجياً قوياً جداً واشتهرت بأنها لاتظهر عند الزحف عليها من بعد ، بينما تستطيع حاميتها أن تكشف تحركات المهاجمين لها وهم ما يزالون على مسافة طويلة .

وأهم جبالها هي :

١ ـ جبل الزيتون[٧] :

وهو المواجه لأسوار الحرم من الجهة الشرقية ، يفصله عنه واد عميق سريع الانحدار هو « وادي قدرون » وامتدادهما من الجنوب إلى الشمال . وهو من الوجهة التاريخية من أهم الجبال المحيطة بالقدس ؛ والتلمود يسميه « جبل المسح » أي جبل التتويج ، لأنهم يأخذون من زيتونه الزيت المقدس الذي يستعمل في تتويج ملوكهم ، وعليه كانت تحرق بقرة القربان الحمراء (في التلمود ، وهي في القرآن « صفراءُ فاقع لونها » ، وكانوا يستخدمون الرماد المتخلف عن إحراقها في تطهير الهيكل وإعادة تكريسه إذا دنس ، وهي عادة وثنية منتشرة في هذه المنطقة قبل نزول الديانات السماوية . وفي أسفل هذا الجبل توجد حديقة المعصرة « جتسماني » التي اكتسبت ذكريات قدسيه لدى المسيحيين من صلاة يسوع عندها وهو في النزع الأخير . وفي أعلاه مغارة ألقى فيها المسيح بعض تعاليمه ، والتقى بحوارييه قبل صعوده إلى السماء ، وعليه بكى المسيح على « أورشليم » وحياة المؤمنين به

بالأغصان الخضراء يوم «أحد السعف» الذى يتقدم الفصح . والعرب يسمونه اليوم « جبل الطور » .

٢ – جبل بطن الهوا :

وهو امتداد جبل الزيتون فى الزاوية الجنوبية الشرقية للقدس يفصله عنها « وادى سلوان » الذى يتصل فى هذه النقطة نفسها بوادى قدرون . ويسميه اليهود « هارها مشحيت » أى « الجبل الفاضح » ، ويزعمون أن سليمان أقام عليه المعابد الوثنية لنسائه الأجنبيات ، وأنه هو المقصود فى سفر الملوك الأول[١] ١١/١ – ٨ : « وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون ، موآبيات وعمونيات ، وأدوميات ، وصيدوينات ، وحيثيات ، من الأمم الذين قال عنهم الرب لبنى إسرائيل : لا تدخلون إليهم وهم لا يدخلون إليكم ، لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم . فالتصق سليمان بهؤلاء بالحب ، وكانت له سبعمائة من النساء الحرائر وثلثمائة من السرارى ، فأمالت نساؤه قلبه ؛ وكان فى زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى ، ولم يكن قلبه كاملا مع الرب الهه كقلب داود أبيه . فذهب سليمان وراء عشتروت الاهة الصيدونيين وملكوم رجس العمونيين ، وعمل سليمان الشر فى عينى الرب ، ولم يتبع الرب تماماً كداود أبيه . حينئذ بنى سليمان معبداً لكموش ، رجس المؤابيين ، على الجبل الذى تجاه أورشليم ، ولمولك رجس بنى عمون . وهكذا فعل لجميع نسائه الأجنبيات اللواتى كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن » .

---

(١) هكذا فى سفر الملوك ، وهو — كما هو ظاهر — خطأ فاضح لنسبته عبادة الأصنام لسليمان عليه السلام بميله إلى نسائه ، وهو مخالف لعصمة الأنبياء عليهم السلام .

٣ـ جبل صهيون :

فى الجنوب الغربى للقدس القديمة ، وكانت عليه قلعة اليبوسيين التى انتزعها داود منهم بالحرب ، ثم نقل إليها قاعدة حكمه التى كانت حتى السنة الثامنة لتوليه الملك فى جبل « جرزيم » بالقرب من نابلس شمالا ، وسماه منذ هذا الوقت « مدينة داود » . وكان يفصل جبل صهيون قديماً عن هضبة القدس جبل أقل ارتفاعاً يمتد منحنياً على شكل هلال إلى الشمال الشرقى من صهيون ، وكان يمر بين الجبلين واد ضيق كان يسمى حسب قول المؤرخ اليهودى يوسفوس (من القرن الأول الميلادى) « وادى الجبانة » التيروبويون » أى صانعى الجبنة ، وكان يمتد من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى حيث يتصل بوادى سلوان ، الذى يتصل بدوره بوادى قدرون شرقاً . وهذا الجبل الصغير لم يرد له اسم خاص فى الكتاب المقدس ، ولكن فى عهد الملك اليونانى السلوقى انطيوخوس الرابع (ابيفانوس) الذى حكم الشام من ١٧٥ إلى ١٦٤ ق . م . ثار اليهود على حكمه فحضر وقمع ثورتهم وبنى على هذا الجبل الصغير المواجه للقدس من الغرب قلعة سماها « أكرا » ومن ثم أصبح هذا الجبل يسمى :

٤ ـ جبل أكرا

٥ ـ جبل موريا

أو جبل بيت المقدس ، أو بالاختصار « الحرم » حيث المسجد الأقصى وقد ورد اسم « موريا » فى التوراة (التكوين ٢٢/٢) فى قصة الذبيح الذى أمر الله إبراهيم أن يقدمه قرباناً وحدد له هذا الموضع ليذبح

فيه ابنه إسحق ، والموضع ما يزال حتى الآن محل خلاف كبير فى هذه القضية بين الباحثين وبين اليهود أنفسهم ، فاليهود السامرة يرون أن الحادثة كانت على جبل جرزيم القريب من نابلس ، حيث قام أقدم هيكل لبنى إسرائيل وهو الذى جاء داود فأبطله وعطله بعد أن نقل عاصمته إلى القدس ، أما طوائف اليهود الأخرى فتزعم أن وقفة إبراهيم بابنه كانت على هذا الجبل بالقدس ، وعلى الصخرة الشريفة بالذات . وأكثر المسلمين يعتقدون أنه إسماعيل .

٦ — جبل رأس المشارف ، سكوبوس :

ويسميه التلمود « جبل المراقبين » (هارهاصوفيم) وهو امتداد لجبل الزيتون من الشمال الشرقى إلى الشمال يفصل بينهما منخفض يسمى عقبة الصوان » .

٧ — ويبدو أنه كان فى قديم الزمان جبل يقوم بين جبل سكوبوالس وبين هضبة الحرم « جبل موريا » ذكره يوسفوس فى كتابه (حرب اليهود — الجزء الأول ، الباب الخامس) وسماه « بيزيتا » أى « بيت الزيتون » أو « منبت الزيتون » . ولما تولى « اجريبا الأول » (٤١—٤٤ ميلادية) وهو من أسرة هيرودس التى اهتمت كثيراً بتجميل القدس كما سترى ، ردم ما بين « جبل موريا » وجبل « بيزيتا » ومد أسوار المدينة إلى ما وراء هذا الجبل الأخير بحيث أصبح حياً من أحياء القدس كان يسمى « المدينة الجديدة » .

وعلى ذكر هذا الردم بين جبلين فقد حدث فى القدس نفسها قبل ذلك ، فى حكم الأمير اليهودى المكابى شمعون من أسرة الحشمونيين

التى كانت تحكم فلسطين حكماً دينياً من قِبَل اليونان ، نقول : فى هذا الوقت (سنة ١٤٠ ق. م.) قام شمعون بردم ما بين تل « اكرا » حيث قلعة انطيوخوس السلوقى ، وبين جبل الحرم «موريا» بحيث صارا شيئاً واحداً أيضاً .

وهكذا إذا أخرجنا جبل الزيتون وامتداده جنوباً وشمالا ، لانفصاله التام عن القدس بالمنخفضات والوديان الشرقية والجنوبية ، والجنوبية الشرقية وأخذنا فى الاعتبار أن جبل الحرم « موريا » أصبح يضم جبل «بيزيتا» من الشمال الغربى ، وجبل « أكرا » من الجنوب الشرقى ، أمكننا أن نقول : أن المدينة كانت تقوم بهذا الشكل على مرتفعين اثنين هما : هضبة الحرم ، وقبالتها فى الجنوب الشرقى « جبل صهيون » يفصل بينهما جزء من وادى الجبانة « تيروبيون » ، وهذا ما لاحظه المؤرخ اللاتينى تاسيت فى كتابه (الجزء الخامس) .

ويذكر يوسفوس أيضاً أنه كانت هناك قنطرة تربط هضبة الحرم « جبل موريا » بالزاوية الشمالية الشرقية لجبل صهيون حيث كان يوجد كورنيش يقال له باليونانية (كسيستوس) وهذا العمل يرجع أيضاً إلى أمراء الحشمونيين الذين حكموا باسم اليونان فى فلسطين ، فهم الذين ردموا جزءا من الوادى وبنوا قنطرة قائمة على عقود مقوسة توصل من مدينة داود » على جبل صهيون إلى « الحرم » على جبل موريا ؛ وهو الطريق الذى يمتد الآن من الحرم إلى باب السلسلة .

ولا نستطيع وقد أوضحنا مواقع جبال القدس وما طرأ عليها إلا أن نشير إلى المنخفضات ،أو الوديان الفاصلة بينها مجتمعة بعد أن سبقت الإشارة لبعضها فى مواقعها .

١ ـ وادى قدرون شرقاً :

وهو اسم جدول الماء الذى يجرى فى قاعه عندما يسقط المطر ، وقد اشتهر باسم « وادى يهوشافاط » (سفر يوئيل ٢/٣ ، ١٢) وطوله نحو كيلو مترين يفصل السور الشرقى للقدس عن جبل الزيتون ، ويعتقد كثير من الطوائف المسحية واليهودية أن الحشر يوم القيامة سيكون فى هذا الوادى اعتماداً على قول النبى يوئيل : « أحمل كل الأمم وأنزلهم إلى وادى يهوشافاط وأحاكمهم هناك » ، وفى الموضع الثانى الذى أشرنا إليه يقول النبى يوئيل : « تنهض الأمم وتصعد إلى وادى يهوشافاط لأنى هناك أجلس لأحاكم جميع الأمم من كل ناحية .

٢ ـ وادى سلوان جنوباً :

وهو اسم النبع الموجود فى هذا الوادى ، والذى ينساب منه مجرى ماء اسمه جيحون ، أما الوادى نفسه فكان يحمل قبل مجئ العبريين أسم قبيلة « هنّم » بتشديد النون ، فكان يقال « وادى هنم » أو « وادى بنى هنّم » وكلمة الوادى كانت فى لغات سامية قديمة متعددة هى كلمة « جى » ، فكان يقال « جِهَينّم » أى هذا الوادى نفسه ، وكانت هذه القبيلة ، فى الوثنية البعيدة فى القدم ، تقدم الضحايا البشرية إلى الهها « مولك » بذبحها وإلقائها فى النار ، ومن هذه الصورة أطلق اسم « جهنم » على مكان العذاب فى الآخرة للشبه القائم

بينهما . ووادى « هنم » أو « سلوان » أو « جيحون » هذا يمتد على على طول جنوبى القدس ؛ حتى الطرف الجنوبى الشرقى من جبل صهيون . وسمى هذا الوادى بين العرب « حقل الدماء » .

٣ – وادى الجبانة أو « التيروبيون » :

يفصل جبل صهيون عن غرب القدس ويبدأ حيث ينتهى وادى سلوان ، وكان يسمى فى الجزء الجنوبى الغربى من القدس « وادى الزبالة » أو « وادى الدمن » أو « وادى القمامات » ، وقد أشرنا إلى ردم جزء منه فى أعمال توسيع لجبل صهيون ، وللحرم المقدس الواقع على جبل « موريا » الذى هو هضبة الحرم الشريف .

٤ – وادى الارواح

« رفائيم » بالعبرية ، أو العفاريت ، يدور حول غرب جبل صهيون وأقصى الجنوب ، وبه مدافن للموتى .

داود . . . ومدينته

قلنا : إن القدس ظلت فلسطينية فى أيدى اليبوسيين إلى السنة الثامنة من حكم داود . كان داود من الجنوب ، من صحراء النقب ، حيث اختارت قبيلة – سبط يهوذا – تلك الجهة مسرحاً لحياتها البدوية الرعوية . ثم إنه انتقل إلى الشمال حيث كان نبى بنى إسرائيل « صموئيل » قد توج أول ملك على كل الشعب هو « شاءول » ، وكان داود قد ألحق ببلاط شاءول . وفى هذه الآونة كان سكان البلاد الأصليين « الفلسطينيين » يريدون التخلص من الوجود « العبرى » فى بلادهم ، وكانت الحرب سجالا بينهم وبين الاسرائيليين وبرز

من الفلسطينيين بطل عملاق مخيف هو « جالوت » استطاع داود أن يقتله بحجر أطلقه من مقلاع ، ثم قطع رأسه بعد ذلك ، وأخذها ليفخر بانتصاره فى الجنوب ، ومر بها على أورشليم . ومنذ هذا الوقت بدأت شعبية داود فى الاتساع حتى بات الملك شاءول يحقد عليه ،ويدبرالأمرلاغتياله دون جدوى ،وأخيراً تعرض شاءول لهزائم ساحقة ومتعددة من « الفلسطينيين » انتهت بأن انتحر على أحد الجبال على أثر معركة فاشلة . وأصبح داود بعده ملكاً . فأراد أن يترك الشمال إلى نقطة حصينة أكثر توسطاً من حيث الموقع ، فوجد مطلبه هذا فى « مدينة اليبوسيين » أورشليم . فهى قريبة من ديار سبط يهوذا وهم عشيرة داود ، وهى وعرة المسالك للقادم من الأردن أو من البحر أو من الشمال على السواء ، وهى حصينة غير مكشوفة للغزاة ، ثم إنها بعد كل هذا فى وسط عشائر فلسطينية قديمة يبدو أنهم كانوا أكثر ميلا إلى المسالمة من أهل الشمال .

بدأ داود بالاستيلاء على جبل صهيون ، وكانت فيه قلعة أمامية لليبوسيين يدافعون منها عن القدس ، وكانوا يسمون جبل صهيون بالمنشآت القائمة عليه « المدينة الفوقانية » ، بالنسبة لهضبة الحرم (جبل موريا) التى كانوا يسمونها « المدينة التحتانية » . استولى داود إذن على « المدينة الفوقانية » وحصنها وجعلها قاعدة لحكمه ، ولما كانت أسرته هى سبط يهوذا ، فمنذ هذا الوقت بدأ العبريون أو الإسرائيليون يسمون باليهود أيضاً ، ولما كان داود ، على طريقة أمراء بنى إسرائيل ورؤسائهم فى العصور القديمة ، وعلى طريقة الكثير من

الحكام القدماء ، يستمدون سلطتهم من « الله » ، فقد جعل من صهيون مقر السلطة الدينية والسياسية والعسكرية جميعاً . ولم يجد غلاة المتعصبين من اليهود فى العصر الحديث تسمية أكثر سحراً فى آذان فقراء اليهود وبسطائهم من « الصهيونية » وما تقترن به من قوة داود وشدة شكيمته وأبهة سليمان وبهاء عظمته وفخامته على عرشه الأسطورى العجيب ؛ فاختاروها اسما وشعاراً .

ظل داود يضغط على اليبوسيين ، ويضايقهم فى جبلهم (موريا) ويريهم صنوف الإذلال ، وهم يرحلون تاركين له ديارهم حتى لم يبق إلا مسطح القمة ، فكان المسجد الأقصى وقبة الصخرة ، ملكاً لليبوسى « آرونا » يتخذه جرناً ومربضاً لماشيته ، فاشتراها منه داواد بما فيه من المواشى ، وقالوا فى عنعنات شفوية يهودية لا يقوم عليها أى دليل : إن داود جعل من الصخرة التى على الهضبة مذبحاً للرب . وصاغوا حول ذلك أساطير لا تكاد تنتهى حتى قالت بعض نصوص التلمود (توسفتا ـ يوما / ٨٤ ، ٨)ت « إن الله تعالى خلق الأرض ابتداء من هذه الصخرة » وقال أحد أحبارهم وهو اليعازر البابلى « إن الصخرة هى أصل خلق الأرض ، وإن صهيون هو سرة العالم ، وهو كامل الجمال والبهاء » (التلمود البابلى – يوما / ٥٤) . وجاء فى كتاب « زوهر » وهو من كتب التصوف اليهودى المشهورة « إن يعقوب نام على الصخرة وهو منطلق من بيت أبيه اسحق » بينما المعروف أنه نام فى « بيت ايل » قرب نابلس . ولكن هذا التحريف يهدف إلى نقل قدسية « بيت ايل » المجاورة لنابلس ، والتى ظل اليهود السامريون على وفائهم لها كقبيلة ليعقوب ، إلى أورشليم .

والحق أننا لا ندرى أية صخرة يعنى اليهود ، فالتلمود يذكر أن الصخرة التى يقدسونها ترتفع عن مستوى سطح الأرض ثلاثة أصابع (التلمود – يوما / ٨٥ – ٣ ، ٤ ، توسفتا ٨٣/٦ وموسى بن ميمون فى كتابه « طقوس يوم الغفران ») بينما الصخرة الموجودة حالياً ترتفع عن مستوى سطح الأرض بنحو متر كامل ، ومحيطها يناهز العشرة أمتار ، وتحتها فجوة هى بقية مغارة قديمة عمقها أكثر من متر ونصف ، تبدو الصخرة فوقها وكأنها معلقة بين السماء والأرض ، وبين الصخرة وقاع المغارة دعامة من الخشب حتى لا تنهار .

ومن الذين شكوا فى أن تكون الصخرة الشريفة هى الصخرة المعنية فى التلمود ، الباحث الألمانى « شيك » فى أوائل هذا القرن ، فهو يقول : إن الصخرة الحالية ربما كانت على أكثر تقدير إحدى ركائز المذبح الخاص بالقرابين فقط . ولم تكن فى يوم ما داخله « ضمن » قدس الأقداس » . أما صخرة اليهود التى يسمونها بعد أساطير التلمود التى أشرنا إليها « ايبن هاشتيا » – أى حجر الأساس – فالله أعلم ماذا صنع بها بختنصر وانطيوخوس ابيفانوس وتيتوس وفسبازيان وهدريان والصليبيون وغيرهم ممن دمروا أورشليم مراراً وتكراراً تدميراً كاملا .

والعجيب فى أمر الباحثين اليهود ، وفى مقدمتهم دوائر المعارف العبرية المختلفة وما كتبوه من المؤلفات عن القدس ، أنهم إذ يؤكدون بدون أية حجة أن الصخرة الشريفة هى « حجر الأساس » المذكور فى التلمود ، ينفون نفياً باتاً أن تكون كنيسة القيامة بالقدس ذات علاقة أيا كانت بجسد المسيح – عليه السلام – ، فدائرة المعارف الإسرائيلية

العبرية المنشورة فى نيويورك سنة ١٩١١ تقول فى هذا الصدد : إن دفن الموتى داخل أسوار القدس كان لا وجود له إطلاقاً ، وإن أقرب المقابر إلى أسوار القدس هى مقابر « سامبوسكى » عند قدم جبل صهيون من الطرف الجنوبى الشرقى خارج السور مباشرة ، والمقابر المذكورة تحمل اسم العائلة التى بنت فيها مدفناً كبيراً فى العصر الحديث ، وقد عثر فيها على مقابر قديمة أيضاً ، وأضاف كاتب البحث إلى ذلك أنه طيلة عهد الهيكل الثانى » (أى من القرن الخامس قبل الميلاد إلى سنة سبعين ميلادية) لم يدفن أحد داخل أسوار المدينة المقدسة ، وبناءً على ما ذكر يكون مستحيلا فى رأيه أن يكون الجسد المصلوب قد دفن فى هذة البقعة التى هى من صميم أورشليم وفى داخل أسورها .

ولا نريد أن نناقش الأمر « بيزنطياً » وإنما نشير إلى أن المسيح وأتباعه لم يتمسكوا من الشريعة القديمة إلا بالناموس الموسوى ، والأوامر والنواهى التى أبلغها الأنبياء ، أما « التلموديات » التى لا تعد ولا تحصى فقد كانت رسالة المسيح فى جوهرها ومنطوقها تنادى وتجاهر بإبطالها وتطهير العقول منها ، حتى لا يخضع الشعب اليهودى خضوعاً أعمى لظلامها المطبق ، الذى تفرضه السلطة الكهنوتية اليهودية على الشعب البسيط المخدوع المحروم من النور الحق ، ومادام الأمر كذلك ، فما الذى يفرض على أتباع المسيح فى عشية الصلب ، وأيدى كهنة التلمود ما تزال مخضبة بدمائه ، أن يحترموا عرفاً لا يستند إلى أمر أو نهى من الله ؟ ثم إن الحفائر المختلفة ما تزال كل يوم تكشف عن موتى لا يحصى عددهم وجدت عظامهم داخل الأسوار .

مدينة داود . . . بعد داود

ورث سليمان داود ، وكان ملكاً يحب الفخامة ويميل إلى حل مشاكل السياسة والاقتصاد حلولا دبلوماسية لا يلجأ فيها إلى قوة السلاح ، فصاهر جيرانه مبتدئاً بالقصر الفرعونى فى مصر إذ تزوج ابنة فرعون ، ثم غيرها وغيرها من بنات الملوك والحكام المحيطين بمملكته الصغيرة . وحاول أن يجعل عاصمة ملكه — أورشليم — لا تقل عظمة وعمراناً عن العواصم الكبرى فى الشرق فى زمانه ، فبدأ بتشييد سور فاخر حول المدينة ، ثم أخذ فى بناء المعبد الكبير — الهيكل — الذى كان أبوه داود قد بدأه قبل موته ، ومع ذلك فإن الأخبار الاسطورية عن فخامة هذا الهيكل وضخامته لا يمكن أن تكون قد نجت من شطحات الخيال اليهودى الحالم فجاءتنا مبالغاً فيها أشد المبالغة . وهكذا يقول الكاتب اليهودى الأمريكى لويس براون فى كتابه المسمى « حياة اليهود » إن إنجازات سليمان فى أورشليم ، وفى مقدمتها قصره الملكى كانت تبدو فى عيون اليهود السذج من رعيته فخمة فخامة تفوق التصور . مع أنها لو قورنت بالقصور الهائلة فى مصر أو بابل أو الهند لبدت ضئيلة سمجة الذوق . . كان القصر مكوناً من عدة أبنية منفصلة : بناء للصناع ، وقاعة للاجتماعات ، وبهوا للعرش ، والمحكمة العليا ، و « حرملك » كبير يكفى لسكنى المئات من نسائه . وكان هناك أيضاً معبد ، وهو بناءٌ صغير طوله مائة قدم وعرضه ثلاثون قدماً ، موضوع فيه « تابوت العهد » — هذا الصندوق الذى تحفظ فيه التوراة ولا شك أن المعبد كان بالنسبة لسليمان مشروعاً أقل أهمية من القصر ، كان

مقصورة دينية فى بلاط الملك ، ولذا لم يستغرق بناؤه أكثر من نصف الوقت الذى استغرقه بناءُ القصر . ولكنه مع مرور الزمن ، وبعد الكهنة والأنبياء الذين وفدوا عليه على طول حكم أُسرة داود ، كان يتخذ فى خواطر اليهود مكانة ، وكانت له من بعد ذكريات ، ربما لم يستطع شيءٌ آخر على هذه الأرض أن يضمن مثل ما استطاع هو بقاءُ إسرائيل عليها ، مع أنه كان فى حد ذاته أصغر من أى معبد يهودى فى أمريكا الآن ، ومن كثير من كنائس الأرياف المنتشرة فى أنحاء العالم . بالرغم من هذا فإنه أقوى بناء شيدته يد الإنسان من حيث عمق أثره وقوته ، وما يقوله لويس براون صحيح ، بل ربما كان دون الأبعاد الحقيقية لسيطرة هذا الهيكل على نفوس اليهود وخيالهم ، بعد تدميره واندثاره . وحتى الآن اقترنت أُورشليم به ، وتقدس لدى اليهود من أجله وإذا ذكر اسمها فالمراد هو أولا وقبل كل شيء ، وما كتبه الكتاب والأحبار من شطحات خيالهم حول ذلك شيء تضيق عنه مئات المجلدات . بحيث كان كل اليهود فى حاراتهم القذرة وأسمالهم البالية ، على الثلج ، وفى الوحل ، يعيشون فى هيكل أُورشليم مع سطور التلمود ومع كتابات الأحبار ، وكانت صيغة المعايدة الدائرة على ألسنتهم – وبخاصة فى عيد الفصح – هى « السنة القادمة فى أُورشليم » وهو شعار استغلته الصهيونية ، وكهربت به أعصابهم ، وأعطته كل المعانى الحربية والعسكرية الممكنة . ولنذكر نموذجاً واحداً من هذه الشطحات الكهنوتية اخترناه من كتاب التصوف اليهودى « زوهر » ٢/٢٢٢ : « عند خلق العالم ، ألقى الله حجراً كريماً من عرشه العظيم فى الفضاء المظلم ، فغطس فيه جزءٌ من هذا الحجر وبرزت بقيته فوق السديم . وهذه البقية

البارزة كنقطة فى هذا الفضاء اللانهائى بدأت تمتد فى كل الاتجاهات عن يمين وشمال ، وأرسيت الدنيا عليها ، ولذلك يسمى هذا الحجر « حجر الأساس » . وكان تكوين الأرض حوله على ثلاث مراحل : المرحلة الأولى عبارة عن منطقة مستديرة حول الحجر ، نورانية شفافة ، والثانية من حولها مصنوعة من مادة أقل شفافية ولكنها أكثر رقة فى الأرض ، والثالثة أرض معتمة ، يطوقها المحيط الذى يدور حول العالم . وهذه المناطق الثلاث ممثلة فى الهيكل الذى فى أورشليم : فالمنطقة النورانية ، وهى النقطة العظمى ، عبارة عن الهيكل ومدينة أورشليم ، والثانية ، الأقل شفافية هى الأرض المقدسة « فلسطين » ، والثالثة المعتمة هى بقية العالم حيث تسكن الأمم غير اليهودية من الكفار . أما المحيط الذى يدور بكل شىء فهو مملكة الجن التى تحيط بالعالم . ولم تر الدنيا قط شيئاً أجمل من ستائر تابوت العهد . وعندما أدخل تابوت العهد إلى الهيكل صاح بآية المزامير ١٣٢/١٤ : هذا مستقرى إلى الأبد وهنا سوف أقيم . وكان صوت روح القدس يردد هذه الكلمات على مسامع إسرائيل . ولولا الهيبة التى يجب اصطناعها أمام مقدسات الناس جميعاً تأدباً واحتراماً لمشاعرهم ؛ لعبرنا عن رأينا بصراحة فى مثل هذه الشطحات ، وإن كان لا يغيب عن البال ما تهدف إليه الرواية لهذا اللون من الأدب الشعبى من تأكيد العنصرية البغيضة التى اخترعها « شعب الله المختار » وكان أول من اصطلى بنارها أيضاً ، ومن تأكيد البقاء الأبدى فى « أورشليم » ، بينما المسكين قد عاش تائهاً

غارقاً فى « المنطقة المعتمة » القريبة من « مملكة الجن » المحيطة بالأَرض . . . رحمه الله .

وما كاد سليمان يلقى ربه حتى حدثت حرب أَهلية بين الأَسباط وانقسمت المملكة شطرين ، وأَصبح الهيكل وأُورشليم قبلة لنصف العبريين فقط .

ثم تعرضت القدس مباشرة لهجوم الجيش المصرى الفرعونى (حوالى سنة ٩٧٠ ق. م) . وهى تحت حكم « رحبعام بن سليمان » . وتوالت عليها بعد ذلك الهجمات المتلاحقة : من الأَدوميين فى الأُردن إلى العرب إلى الآراميين إلى الإسرائيليين فى مملكة الشمال ، عندما هاجم يهوآش ملك إسرائيل أَمصيا ملك أُورشليم ويهوذا وهدم أَسوارها وأَخذ ما فى الهيكل من الذهب والفضة والأَوانى ، ونهب القصر وأَخذ بعض الرهائن وعاد إلى السامرة (الملوك الثانى ١٤/١٤) .

وتكرر الزحف المصرى على أُورشليم فى حكم الفرعون نخاو ، وكان ملك يهوذا يهو آحاز (حوالى ٦١٠ ق. م.) .

ثم انتعشت أُورشليم فى عهد الملك عزيا الذى حكم أَكثر من نصف قرن من الزمان ، وكان مهتما بتحصينها فبنى حولها أَبراجاً وحفر آباراً وأَنشأَ البساتين والحدائق (اخبار الأَيام الثانى ٢٦) . واستمر إنشاءُ البوابات والتحصينات على عهد ابنه يوثام .

وتبلور الخطر الأَشورى على القدس فى عهد سنحاريب الذى كان معاصراً لحزقيا ملك يهوذا ، فأَخذ هذا الأَخير فى زيادة التحصينات بالقدس وقام بردم آبار الماءِ التى فى خارجها حتى لا ينتفع العدو بها

وكذلك الجداول الجارية منها ، ودعم السور فى المواضع المتهدمة منه وحصن قلعة داود على جبل صهيون ، وقام بمشروع هندسى ناجح أجرى به مياه نهر جيحون الذى يجرى جنوباً خارج القدس تحت الأرض إلى داخل المدينة ، وأنشأ صهاريج للماء ، وهكذا استطاع أن يراجه الحصار الأشورى دون أن يضطر إلى الإذعان .

الخراب الأول ، والهيكل الثانى

كان بختنصرملك بابل يحاول أن يسوى حساباً قديماً مع فراعنة مصر ، ولكنه فى كل مرة يجد عقبة ما فى فاسطين تظهر له فجأة من قبل اليهود فيبوء بالفشل ، وأخيراً « سنة ٥٨٨ ق. م.) هاجم القدس بعد أن كان استولى على أهم أجزاء فلسطين ، ومنها غزة فى أقصى الجنوب ، وكان ملك يهوذا فى ذاك الوقت « صدقياهو » ، ولما سقطت القدس بعد مقاومة رهيبة أحرقها الجيش البابلى وخربها ونهبها ، وأخذ معظم أهلها أسرى إلى العراق حيث بقوا سبعين عاماً ، إلى ما بعد نجاح الامبراطور كورش ملك الفرس فى احتلال العراق وإسقاط الامبراطورية البابلية ، وقد لقى جيشه بطبيعة الحال كل التسهيلات اللازمة لمهمته من قبل اليهود الموتورين المحتجزين فى العراق ، فسمح على الفور بعودتهم إلى فلسطين وتأسيس « وطن قومى » تحت رعايته وحمايته داخل ملكه وسلطانه ، فعاد كثير منهم برئاسة يوشع بن يوصدق وزروبابل بن شلتئيل ، وبعدهما بثمانية عشر عاماً جاء عزراً ونحميا ، الذى أخذ فى إعادة بناء هيكل سليمان (يقول الرواة :

بصورة أقل فخامة ، ولعل ذلك من فرط إعجابهم الخيالى بهيكل سليمان فقط) .

وفى سنة ٣٣٢ ق. م. احتل الإسكندر فلسطين وأدخلت تحت الحكم اليونانى ، ولكن أحد أحبار اليهود وهو « شمعون بن حونيو » استطاع بدبلوماسيته أن يحوز رضا الاسكندر وأن يظفر منه بمزيد من العناية بتجميل القدس (التلمود ، يوماً) ، وبعد موت الإسكندر استولى بطليموس الأول « سوتير » على أورشليم حوالى سنة ٣١٠ ق. م. وأخذ كثيراً من أهلها أسرى إلى الاسكندرية .

ثم زحف عليها ملك سوريا انطيوخوس السلوقى اليونانى سنة ٢٠٣ ، وعاد فاستردها منه القائد البطلمى « سكوباس » المصرى سنة ١٩٩ والظاهر أن اليهود فى المدينة كانوا أميل إلى حكم السلوقيين ، وقد ساعدوا انطيوخوس على دخول القلعة ، كما يقول يوسفوس ، ومباغتة المصريين فيها . وبسبب ذلك خفف انطيوخوس الضرائب عن يهود القدس ، واهتم بعمارة الهيكل والمدينة وتدعيم حصن داود . ويصف اليونانى أرسطياس ، المعاصر لهذه الأحداث ، فخامة القدس بما ببين أنها كانت مدينة كبيرة لها أسوار وعليها أبراج ، والخدمة الدينية فى الهيكل كانت على أرفع نظام ، وكان عدد السكان مائة وعشرين ألفاً . وتعود اليهود بعادات اليونان ، وتركوا الرب ، وظهرت فرقة « ياسون » وأخيه « منيلاوس » ، وقالا : بأن منصب الحاخام الأكبر يجب أن يكون بالوراثة لا بالانتخاب وحدثت فتنة كبيرة ، انتهزها الحاكم السورى انطيوخوس ابيفانوس فزحف على أورشليم سنة ١٧٠ ق. م. ونهبها وذبح كثيراً من يهودها .

وبعد ذلك بعامين هجم قائده ابولونيوس على المدينة مرة أُخرى فأكثر فيها من القتل والتخريب واقتحم الهيكل وأقام فيه تمثال انطيوخوس ، وبنى بجواره مسرحاً للتمثيل وأخذ معه رهائن من يهود القدس . فقام من أُمراء المكابين اليهود الحشمونيين « متتياهو » ثائراً ضد اليونان هو وأولاده الخمسة ، ثم أتم يهودا المكابى هذه الثورة بطرد اليونان من الهيكل ، ومن جزءٍ كبير من المدينة سنة ١٦٥ ق. م. وواصل هذا الكفاح شمعون المكابى ، ففى سنة ١٤٣ طرد الحامية اليونانية من قلعة داود « صهيون » .

وعاد اليونان بقيادة انطيخوس السابع (سيديتاس) فى عهد يوحنا هيرقانوس المكابى فاتقى هذا الأخير شره بتقديم قوالب من الذهب استخرجها من قبر داود ، يقول يوسفوس : إن وزنها كان ٧٥ طناً ، ثم حدث نزاع على العرش بين هيرقانوس وأخيه أرسطوبولوس فى داخل القدس .

أورشليم وروما

أثناء هذه الفتنة زحف القيصر الرومانى « بومبى » على فلسطين واحتلها سنة ٦٦ ق. م. وقتل من اليهود فى القدس وحدها ١٢٫٠٠٠ ، بينما كان اليهود يخربون كل شيء بأيديهم ويحرقون المدينة كلها بالنيران حتى لا ينتفع بها العدو .

وبعد مدة وجيزة كثرت الاضطرابات فى أُورشليم ، فزحف عليها حاكم سوريا الرومانى « لوقيانوس كراسوس » ؛ ودخل الهيكل ونهبه ،

وكان ما فيه من الذهب والفضة والآنية الثمينة يقدر بنحو خمسين طناً .

وزار يوليوس قيصر فاسطين ، فأذن لليهود فى بناء الأسوار التى كان بعضها قد تهدم .

وفى هذه الأثناء كان هؤلاء « الأمراء » من أواخر المكابيين ما يزالون يتنازعون على السلطة ، أو ما بقى لهم منها ، فى أورشليم ، وهى سلطة أخذ الزكاة من اليهود ، وإدارة القضاء بينهم ، وتنفيذ الأحكام الشرعية فيهم . . . أمارة كاريكاتورية تأخذ من اليهود الزكاة بيد وتصلبهم باليد الأخرى .

وانتهز هيرودس الأدومى فرصة هذه المنازعات وزحف على المدينة سنة ٣٧ ق. م. يساعده القائد الرومانى سوسيوس ، فحاصراها وصبا عليها قذائف المنجنيق واقتحماها وقاما فيها بمذبحة رهيبة .

وافق القيصر الرومانى أغسطس على تعيين هيرودس على القدس « وكل بلاد اليهودية » أى النصف الجنوبى من فلسطين فاهتم بإعادة تخطيط المدينة وتدعيم أسوارها ، وتزويدها بأبراج حصينة للحراسة ، لاسيما فى النقطة الضعيفة استراتيجياً من المدينة وهى الغرب والشمال الغربى حيث أحياء القدس الحديثة الآن . فأقام فى هذه الجهة برجاً سماه برج « هيبيكوس » باسم واحد من أصدقائه قتل وهو يحارب فى صفوفه فى إحدى المعارك ، وهذا البرج هو الذى يسمى خطأ الان « برج داود » . وفى أقصى الزاوية الشمالية الغربية من السور بنى حصناً فى موضع حصن « البيرة » الذى أقيم بعد عودة اليهود من السبى ، وكان

قائماً فى عهد المكابيين ثم تهدم ، وسماه هيرودس حسن « انطونيا » على اسم صديقه وحاميه انطونيو (صاحب كليوباترا) — أما تسمية « البيرة » فهى فارسية معناها القلعة ، ولم تعرفها اللغة العبرية إلا تحت حكم الفرس ، وكان هذا الحصن مربعاً طول ضلعه نحو تسعين متراً ، وفى داخله قصر عليه سور مربع آخر ، تقوم عليه أربعة أبراج ، ثلاثة منها ارتفاعها خمسون ذراعاً ، والرابع سبعون ذراعاً ، وهو البرج الشمالى الشرقى أقرب هذه الأبراج إلى الهيكل ، ومن أعلى هذا البرج كان جنود الاحتلال الرومانى يراقبون ما يجرى داخل معبد اليهود ، الذى حظى من هيرودس أيضاً بالعناية فأعاد بناءه وزخرفته . وفى الجهة الجنوبية الشرقية استقر الملك المتهود « مونوباز » وأمه المتهودة أيضاً « هيلانه » ، وكانا يحكمان قبل تهودهما مقاطعة أديابين فى بلاد الأكراد ، شمال شرق سوريا ثم تهودا ولجآ إلى أورشلم فبنيا إلى الجنوب من جبل صهيون قصوراً ومقابر فى غاية الإتقان .

كان اليهود فى أورشليم لا يكفون عن مناوشة الحامية الرومانية المعسكرة فى قلعة أنطونيا . فأمر « أجريبا الأول » الموظفين الرومان بإحكام الرقابة على اليهود والتشدد فى معاملتهم ، ووصل الحقد إلى أقصاه بين الطرفين أثناء دعوة السيد المسيح ، والفتنة التى أحدثها الكهنوت اليهودى حينئذ ، وكان القيصر كليوديوس قد أمر — نكاية فى اليهود — بوضع تمثال لنفسه فى الهيكل ، بقى فى مكانه إلى أن مات هذا القيصر مسموماً سنة ٥٤ بعد ميلاد المسيح .

الخراب الثانى – والأخير – لأورشليم

دأب اليهود على خلق المشاكل للرومان ، مشاكل ومضايقات صغيرة كانت متلاحقة ومفاجئة ، فقرر الأمبراطور الرومانى « فسبازيان » القضاء عليهم ، وحل المشكلة كلها هذا الحل الجذرى الدامى ، فأرسل ابنه تيتوس على رأس جيش كبير للقيام بهذه المهمة ، وبعد مؤامرات كثيرة قام بها اليهود واستعملوا فيها كل شيء ، حتى النساء ، فى تليين عريكة تيتوس دون جدوى ، تمّ تخريب أورشليم فى ٨ ديسمبر سنة ٧٠ ميلادية وإجلاءُ جميع اليهود عنها ، وهو « السبى الثانى » الذى ظلوا فيه من هذا التاريخ إلى سنة ١٩٤٨ عندما أعلن حايم وايزمان قيام « إسرائيل » .

ولكن بالرغم من أن تيتوس قد بذل أقصى الجهد فى جعل عودة اليهود إلى سكنى القدس أمراً مستحيلا ، فإن من بقى منهم فى فلسطين لم يكف عن التآمر ضد الرومان .

إيليا كابيتولينا ... لا أورشليم

وفى القرن الثانى الميلادى ، سنة ١٣٦ ، قام « بركوكبا » ، أحد نماذج الصهيونية القديمة ، بثورة مسلحة ضد الرومان ، وسجل عليهم ، رغم جيشهم الأمبراطورى الجرار – انتصارات براقة فى البداية ، ولكن الامبراطور الرومانى ايليوس هدريان قام آخر الأمر باتمام ما بدأه تيتوس ، فحاصر ما كان بقى من القدس ، وهدم كل شيء فى المدينة ، ولم يترك

فيها يهوديًّا واحدًا ، وجاءَ إلى مكان الهيكل فأَقام عليه معبداً لجوبيتر كبير آلهة الرومان ، ووضع فيه تمثالا لهذا الإِله كالتمثال القائم فى معبد الكابيتول ، وقرر تغيير كل شىءٍ فى هذه المدينة ، حتى اسمها ، الذى أَصبح مكوناً من اسمه هو واسم الكابيتول معبد جوبيتر الكبير ، فسماها « ايليا كابيتولينا » ومنع اليهود من دخولها ، وجعل الموت عقوبة من يقدم منهم على ذلك ، ثم سمح لهم بالمجىءِ إليها يوما واحداً فى السنة ، والوقوف على جدار ، بقى قائماً من السور فى الجزءِ الغربى من المدينة ، وهو الذى يسمى « حائط المبكى » ويسميه اليهود « الجدار الغربى » وظل حظر السكنى بالقدس قائماً على اليهود قروناً طوالا ، فقد ذكر ذلك يوزيبوس ، المؤرخ المسيحى الذى زار « ايليا » – القدس – سنة ١٣٢ ميلادية ، كما ذكره اليهود أَنفسهم فى تفاسيرهم القديمة « المدراش » (سفر الجامعة – قوهيلت ربا) .

دموع التماسيح على حائط المبكى

كان الأَتقياءُ الطيبون من اليهود ، وفيهم أَتقياءُ طيبون ، يقفون على « الجدار الغربى » باكين ، طالبين الرحمة من الله ، والمغفرة لذنوبهم وذنوب أَسلافهم ، التى بسببها دمر الله ملكهم مرتين : على يد بختنصور البابلى وتيتوس الرومانى . أَما كهنة السياسة الصهيونية عبر العصور فجعلوا هذا الحائط « مسمار جُحا » ، يتخذونه منطلقاً لكل دعوة عنصرية جديدة . ولذلك زعم بعضهم أَنه بقية من سور داود ، وقال آخرون أَنه جزءٌ من حائط سليمان ونسبه البعض إلى المكابين أَو هيرودس ، وقد قام الأَثريون الإسرائيليون بعد حرب يونيو ١٩٦٧

بعمل حفائر فى أساس الحائط ، فكان أكثر ما عثروا عليه ، فى الحجارة التى تحت الأرض ، آيتين من سفر النبى اشعيا محفورتين بخط يجعل نسبة هذه الحجارة لداود أو سليمان مستحيلة . ويرجع العثور على هذا النص إلى الشهور السابقة لإحراق المسجد الأقصى ، ولأن الكشف لم يكن دسما من الناحية السياسية كما يريد الصهاينة ، فقد وضعوه فى « قبر السكوت » كعادتهم فى كثير مما لا يريدون أن يعرفه العالم عنهم .

ولكن الذى لا شك فيه هو أن هذا الحائط جزء من سور المعبد اليهودى وقد يرجع على أكثر تقادير إلى أيام هيرودس ، أى إلى فترة ميلاد المسيح . وتفضى إليه طريق طولها نحو ثلاثين متراً وعرضها أربعة أمتار (وقد نسف اليهود ذلك وعاثوا فيها منذ يونيو ١٩٦٧) .

وارتفاع الحائط ثمانية عشر متراً عن سطح الأرض ، الستة أمتار الأولى منها مبنية بحجارة مستطيلة ضخمة مثل التى يعثر عليها فى أساسات السور ، يضاف إليها من فوق ١٤ سطراً من حجارة أصغر يبدو أنها قد علّى بها الحائط ابتداءً من عصر متأخر جداً هو القرن الثانى عشر الميلادى وما بعده وأساس السور المطمور تحت سطح الأرض عبارة عن ١٩ سطراً من الحجارة المستطيلة الضخمة ، ويمكن رؤية جزء من هذا الأساس من الكهف الملاصق للحائط من جهة الشمال ، أما بقية السور من هذه الجهة الغربية فقد اندثرت إلا بعض النتوءات التى تبرز من مسافة لأخرى ، وهناك ١٢ متراً من الضلع الجنوبى للسور ما تزال بارزة ، وهى بقية العقد المقوس الذى كانت فوقه القنطرة من جبل صهيون

إلى الهيكل ، والتقاليد اليهودية لا ترى البكاء سنة عند هذا الجزء ، مما يؤكد أن الأصل فى هذا البكاء إنما كان على معبد لا مملكة ، وطلبا للمغفرة من الله لا العون من الولايات المتحدة — ومع الزمن غلبت دموع التماسيح دموع الأنقياء .

وإذا كان المبكى أثراً يهودياً يرويه اليهود بدموعهم ، فهناك قبر فى الجنوب لحبر من أحبار اليهود الكبار هو الربى كلونيموس التلمودى يرجمه اليهود بالحجارة تنفيذاً لوصيته . وتقول أسطورته : إن طفلا مسيحياً وجد قتيلا ، واتهم المسيحيون اليهود بقتله لأخذ دمه والاستعانة به فى طقوس خبز الفصح حسب الإشاعة التى تتهمهم بعجن هذا الخبز بدم إنسان غير يهودى فجاء الحاخام كلونيموس وقرأ ودعا على الجثة الهامدة ، فبعث الصبى حياً باذن الله ، ونطق باسم قاتله وإذا به مسيحى ، فندم كلونيموس على معجزته التى قام بها لمن ليسوا أهلا لها فى نظره ، وكتب فى وصيته أنه يريد أن يعاقب نفسه على ذلك بأن يمنع من وضع شاهد باسمه على قبره ، وأن يرجمه من يمر بقبره لمدة مائة سنة ، وإكراماً للرجل فبعض الناس يرجمه إلى اليوم .

القدس الشريف

ظلت « ايليا كابيتولينا » محرمة على اليهود الاسحابة نهارفى السنة يذرفون فيها الدموع على حائط المبكى حتى ظهر الاسلام . واستولت جيوش عمر بن الخطاب، على القدس سنة ٦٣٧ ميلادية بقيادة خالد ابن الوليد وأبى عبيدة عامر بن الجراح . وفى سنة ٦٣٧ ، والجيش

العربي يطوق المدينة ولا يدخلها فى انتظار قدوم الخليفة ، كان زعماء المسيحيين فى داخل المدينة ينتظرون أيضاً خليفة المسلمين ، ومعهم مشروع معاهدة تقضى بكل ما يريده العرب بشرط الابقاء على الحرية الدينية للمسيحيين ، واحترام المشاهد المسيحية المقدسة فى البلد ، واستمرار القرار الرومانى القديم بمنع اليهود من النزول بالمدينة . وقبل عمر الشروط كلها إلا الشرط الأخير ، معتذراً بأن القرآن قد حدد ما لأهل الكتاب وما عليهم ، وليس فيه شئ يسمح بهذا . ولكنه تعهد لمسيحى القدس بألا يدخل أحد من اليهود إلى مقدساتهم أو يسكن فى حاراتهم . ثم أراد أن يؤمن للحامية العربية مكاناً تعسكر فيه بالقدس فوجد أن سفح « صهيون » قد صار قذراً جداً — وقد أشرنا إلى أن وادى القمامات كان يلاصقه منذ أقدم العصور — فصعد إلى الهضبة التى كان ليهود يسمونها جبل « موريا » واختط مسجداً بجانب الصخرة الشريفة التى كان النبى محمد ابان حياته قد أسرى به إليها . فصلى عندها ، ودعا القرآن المكان باسم « المسجد الأقصى » . ومن ثم عرج به فى القصة المعروفة المذكورة فى القرآن .

لم يجرؤ اليهود ، طوال أيام الخلفاء الراشدين وأوائل خلفاء الدولة الأموية ، على الاستيطان بالقدس ، ثم سمح لهم بذلك فى أيام الخليفة عبد الملك بن مروان ، الذى بنى المسجد الجامع وبنى قبة الصخرة عام ٦٨٨ ، وكان فى فناء الحرم على أيامه عشرة من اليهود يقومون بأعمال الكنس والنظافة نظير إعفائهم من الجزية ، ذكر ذلك تاريخ مجير الدين المخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس .

وفى سنة ٧٠٥ تولى سليمان بن عبد الملك بن مروان ، فترك فى دمشق أخاه الأصغر وحضر إلى القدس وهو ينوى أن يجعلها عاصمة للخلافة الإسلامية ثم عدل ، وذكر مجير الدين فى تاريخه أن المكلفين على ع مده بإنارة المسجد الأقصى كانوا من الخدم اليهود ، إلى أن تولى الخليفة عمر بن عبد العزيز (٧١٠ – ٧٢٠) ففصل اليهود من هذه الأعمال وجعل خدم الحرم جميعاً من المسلمين .

وفى سنة ٩٦٩ سقطت سوريا وفلسطين تحت حكم الخلافة الفاطمية بالقاهرة ، واستولوا على القدس فى عهد المعز لدين الله الذى كان مشهوراً بعطفه الشديد على الأقليات من أهل الكتاب وخصوصاً اليهود . فازدهرت فى أيامه الطائفة اليهودية ، ولكن حفيده الحاكم بأمر الله (سنة ١٠١٠) ، قسا على المسيحيين واليهود وهدم بعض الأبنية المعظمة عندهم ، حتى أنه أراد ذات مرة أن يهدم كنيسة القيامة كما يروى مجير الدين فى كتابه فى التاريخ .

وفى أواخر يوليه سنة ١٠٩٩ دخل الصليبيون القدس لأول مرة بقيادة الفرنسى « جوفروا » وأبادوا جميع المسلمين واليهود فى المدينة المقدسة وأحرقوا ديارهم ومقدساتهم ، وحرموا عليهم دخولها ، وإن كان الرحالة اليهودى الأندلسى « بنيامين التطيلى » يذكر فى رحلته التى زار فيها القدس سنة ١١٧٠ أنه وجد فيها قليلا من اليهود يقيمون تحت برج داود ، ويشتغلون صباغين بتصريح من الحاكم الصليبى لقاء مال يدفعونه له .

ويذكر رحالة يهودى آخر من الأندلس أيضاً هو يهودا الحريزى الأديب أنه زار القدس بعد أن استردها صلاح الدين الأيوبى من الصليبيين (يوم الجمعة ٢ أكتوبر سنة ١١٨٧) فسمع عنه أنه يكرم اليهود ويحسن معاملتهم ويشجعهم على الإقامة فيها .

وظل الأمر يتأرجح عنفاً وتسامحاً مع اليهود بين الصليبيين والمسلمين بحسب الظروف إلى أن خلصت فلسطين للمماليك ، وكان اليهود قد كثروا فى القدس ، وبدأت بينهم تنظيمات سرية تفرض عليهم الإتاوات لصالح الطائفة ، وتوقع العقوبة – سرًّا – بمن يرفض دفع الإتاوة .

حدث مرة فى حكم السلطان الملك الأشرف قايتباى ، من المماليك البرجية (١٤٦٨ – ١٤٩٦) أن أحد اليهود رفض دفع هذه الإتاوة ، فوقع تحت التهديد والإرهاب ، حتى أنه آثر الدخول فى الإسلام ، واغتاظت أمه من قسوة زعماء الطائفة عليه ، فأسلمت هى كذلك ، وأوقفت بيتها الواقع فى الحى اليهودى ليكون مسجداً للمسلمين ، وكان مجاوراً للمعبد . فلجأ المسلمون فى المدينة سنة ١٤٧٥ إلى المحكمة الشرعية بالقدس يطلبون إجلاء اليهود من مجاورة المسجد الجديد وإزالة معبدهم . وأصدرت المحكمة حكمها فى صالحهم ، ولكن تبين أن الحكم لا بد أن يصدق عليه من المحكمة العليا فى القاهرة . وفى انتظار التصديق قام المسلمون فعلا ببعض أعمال الهدم والإزالة ، ولكن السلطات العليا بالقاهرة نقضت حكم المحكمة الشرعية بالقدس ، وأفتت بأنه لا ضير بأن يقوم مسجد للإسلام فى حارة اليهود وبجوار

معبدهم ، وأمرت بإعادة بناء ما تهدم على نفقة المسلمين ، ذكر هذا أحد مشاهير أحبار اليهود الذين عاصروا تلك الأحداث ، وهو الربى عوبديا دى برطينورو فى رسالة له من القدس ، وكان معظم اليهود يسكنون فى حى خاص بهم على جبل صهيون بمعزل عن المسجد الأقصى وكنيسة القيامة .

فى نفس هذا القرن الخامس عشر الميلادى كان العرب قد طردوا من الأندلس ، وكان الإسلام قد دخل أوربا من الشرق مع السلطان العثمانى محمد الثانى – الفاتح – الذى استولى على القسطنطينية ، ووضع بذلك نهاية للأمبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) .

وطرد العرب من الأندلس جر معه جالية يهودية ضخمة كانت تعيش آمنة فى كنفهم ، وهى التى قامت بخدمة اللغة العبرية والدين الاسرائيلى والحفاظ عليهما وتعميق دراستهما ووفد من هذه الجالية جمهور كبير للاستقرار فى القدس ، كما بدأ يفد من بيزنطة أيضاً عدد من اليهود لا يستهان به .

وفى سنة ١٥١٦ انتهى حكم المماليك عندما سقطت القدس فى يد الجيش التركى فى عهد السلطان سليم الأول العثمانى ومن بعدها مصر أيضاً وبعد ذلك مباشرة كان السلطان سليمان القانونى العثمانى ١٥٢٠ – ١٥٦٦ هو الذى يحكم الامبراطورية الاسلامية الشاسعة وقد أمر باعادة أسوار القدس الشريف على النحو الذى نعرفه الآن .

وبهذا السور الحالى سبعة أبواب :

١ ـ باب الخليل غرباً ، وهو الذى يسمونه أيضاً باب يافا ، وكان يسمى قديماً باب إبراهيم .

٢ ـ باب النبى داود جنوباً ، واسمه باب صهيون ، وهو على جبل صهيون ملاصق لقبور ملوك آل داود .

٣ ـ باب المغاربة جنوباً من منخفض الجبانة « التيروبويون » ويسمى أيضاً الباب الصغير لصغر حجمه نسبياً ، ومن الأثريين من يزعم أنه باب القمامة القديم ، و الراجح أن باب القمامة كان إلى الجنوب أكثر ، فى أسفل الجبل ومن هذا الباب تخرج جنازات الموتى لتدفن على جبل الزيتون .

٤ ـ باب السباع شرقاً ، والعرب يسمونه باب سباط والظاهر أن الكلمة تحريف يهوشا فاط واليهود كانوا يسمونه قديماً باب « يهوشا فاط » لأنه يطل على الوادى المسمى بهذا الاسم .

٥ ـ باب الزاهرة ، شمالا ، وهو باب هيرودس ، وربما كان فى موضع « باب ساحة الجيش » القديم .

٦ ـ باب العمود ، فى الشمال الغربى ، ويسمونه باب دمشق ، واليهود تسميه باب شكيم « نابلس » .

٧ ـ الباب الجديد ، غربى باب العمود ، ويسمى باب عبد الحميد وهو أقرب الأبواب إلى كنيسة القيامة .

هذا عدا أبواب وبوابات داخل القدس نفسها مثل « باب حطة » الذى يصل إليه الداخل إلى القدس من باب الزاهرة ، وباب السلسلة القريب من المسجد الأقصى .

وبعد فهذه جولة فى تاريخ القدس تتبعنا فيها اليهود خاصة ، فوجدنا أن المدينة كانت مقدسة قبل داود بألف سنة ، من أيام الملك الفلسطينى ملكيصدق ، لدرجة أن سيدنا إبراهيم التمس منه الطعام والشراب ، وأن يباركه ببركة الله العلى ، ووجدنا أن فترة أواخر حكم داود وحكم سليمان وهى لا تعدو كلها ثلاثاً وسبعين سنة : ٣٣ لداود ، ٤٠ لسليمان هى الفترة الوحيدة التى كانت المدينة والهيكل فيها مركزاً وعاصمة لليهود بقوة السلاح أولا وبالمسالمة والدبلوماسية ثانياً ، ووجدنا أنه بمجرد موت سليمان تقلصت سلطة القدس بأكثر من النصف ، إذ كانت دولة إسرائيل فى الشمال لا تعترف لا بداود ولا بسليمان ولا بخلفائهما ، لا فى الدين ولا فى السياسة . حتى جاء الأشوريون والبابليون ووضعوا حداً لكل هذا ، ومنذ ذاك الوقت كانت أورشليم رمزاً ، ولم يكن وجود اليهود فيها وجوداً مستقلا ، لا سياسياً ولا اقتصادياً ولا دولياً ، وإنما كانت لهم فيها زوايا ومعابد لطقوسهم ، وكان يأتى إليها حجاجهم كما يذهب المصرى أو المغربى أو التركى للحج فى مكة المكرمة . ووجدنا أن العرب عندما دخلوا القدس الشريف بعد الإسلام كانت المدينة خالية من اليهود منذ خمسمائة سنة أو أكثر ومن كل أثر

سياسى أو دينى لهم إلا « مسمار جحا » الذى هو حائط المبكى ، وعلى مدى أكثر من ثلاثة عشر قرناً ، كانت تحت الإدارة الإسلامية « مدينة الله » بحق يجد فيها المسلم والمسيحى واليهودى صفاء النفس والسكينة الروحانية اللازمة للتأمل والعبادة .

ألف سنة قبل داود ، وألف وخمسمائة سنة بعد داود ، والقدس مدينة الله ، بل داود نفسه لم يكن يسميها إلا مدينة الله ، واليهود يعرفون ذلك جيداً ، ويعرفون أن التلمود كان يعتبرها « مدينة مملوكة لله » ، ولذلك حرمت شريعته أن يمتلك فيها الإنسان بيتاً أو أرضاً أو بستاناً ، أو أن يسكن أحدا فى بيته بأجر ، ولكنهم عند اللزوم كثيراً ما يسكتون جميع الأصوات حتى صوت داود وسليمان وأصوات الأنبياء ، وحتى صوت التلمود .

هيكل سليمان . . . وهياكل أخرى

كيف كان الهيكل الذى بناه سليمان ؟ وكيف تم بناؤه ؟ هل بقى منه شىء غير تلك الشطحات الأدبية الأسطورية التى يغص بها الأدب اليهودى ، الدينى منه والعلمانى ؟ هل قامت على أنقاضه هياكل أخرى ؟

أسئلة هامة تستوقفنا كما استوقفت الباحثين منذ أقدم العصور . وسنقف عندها علنا نجد بصيصاً من نور ، يساعدنا على تبين بعض المعالم ، وعلى تصور البناء فى هيئته الواقعية البعيدة عن تخيلات الحنين اليهودى الحالم ، وعن التلخيص العابر الخاطف الذى ذكرنا مثالا له من كتابة اليهودى الأمريكى المعاصر « لويس براون » .

جاء فى الكتاب المقدس أن داود كان يريد أن يبنى هيكلا للرب فى أورشليم ، ولكن النبى « ناتان » أبلغه — من لدن الرب — بأن يترك هذا المشروع لابنه سليمان (صموئيل الثانى ٧) . لماذا ؟ إن داود نفسه ليشرح سبب ذلك لابنه سليمان شرحاً له دلالته ومغزاه ، حتى فى العصر الحديث . وليسمع كهنة الصهيونية التوسعية فى فلسطين الان (أخبار الأيام الأول ٢٢) « وقال داود لسليمان يا بنى : كان فى خاطرى أن أبنى بيتاً لاسم الرب الهى ، فكان إلىّ كلام الرب قائلا : قد سفكت دماً كثيراً ، وقمت بحروب كبيرة فلن تبنى بيتاً لاسمى ، لأنك سفكت دماء كثيرة أمامى على الأرض . وها هو ذا ابن يولد لك ، يكون رجل سلم ، أسلمه من جميع أعدائه الذين من حوله ، إذ سيكون اسمه سليمان ، وسأعطى سلاماً وهدوءاً لبنى إسرائيل فى أيامه وهو يبنى لاسمى بيتاً » .

ومع ذلك فإن داود أراد ، قبل موته ، أن يسجل معاونته الفعالة لابنه فى إقامة الهيكل ، فأخذ يجهز المواد اللازمة للبناء ، وكان لليهود فى عصره ما يزالون فى بداوة بدائية يندر فيهم من يعرف أصول حرفة أو صناعة أو علم من علوم الدنيا ، وسترى أن الاعتماد على الفنيين الأجانب كان الحل الوحيد الممكن أمام داود وسليمان حتى يرتفع هيكل الرب . جاء فى سفر أخبار الأيام الأول — ٢٢ : « وأمر داود بجمع الأجانب الذين فى أرض إسرائيل ، فاتخذ نحاتين لنحت حجارة مربعة لبناء بيت الله . وهيأ داود حديداً كثيراً للمسامير لمصاريع الأبواب والأوصال ، ونحاساً كثيراً بلا وزن وخشب أرز لا يحصى ، لأن

الصيدونيين والصوريين أتوا بخشب أرز كثيراً لداود ثم أضاف داود وهو يخاطب ابنه فى نفس هذا الإصحاح قائلا : « وها أنذا فى مذلتى قد جهزت لبيت الرب مائة ألف وزنة من الذهب وألف ألف وزنة من الفضة ومن النحاس والحديد مالا وزن له لكثرته ، وجهزت أخشاباً وحجارة وأنت تزيد عليها . وعندك صناع كثيرون للعمل : نحاتون ، ونقاشو حجر وخشب ، وكل أستاذ فى كل حرفة » .

هذه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، وهذا الخشب والحديد والنحاس الذى يفوق الوزن والحصر ، وهؤلاء العمال المهرة والأساتذة الخبراء فى كل حرفة ، قد أورثهم داود لسليمان قبل أن يترك الدنيا ومن فيها ، فلننظر ماذا كان من أمر « بيت الرب » وبنائه .

أما مكان البناء فالإجماع منعقد ، بناء على عنعنات شفوية يقال إنها متصلة متواترة على أن الهضبة المسطحة التى تتوج جبل « موريا » ـ المكان الذى وجد فيه إبراهيم ، قبل سليمان بألف سنة ، الرجل الفلسطينى الأصيل « ملكيصدق » ملك أو شليم ، يعبد الله العلى ، ويقوم بقرى الضيوف فيقدم لإبراهيم الخبز والنبيذ ، ثم يباركه « باسم الله العلى » أيضاً .

ظل هذا المكان فلسطينياً قحاً ، فى أيدى اليبوسيين ، رغم الضغط الاسرائيلى المتكرر حتى جاء داود ، فوجده ملكاً لفلاح فلسطينى يبوسى اسمه « أرونا » أو « أرزنان » ، وقد جعله جرناً ، فاشتراه منه ، والظاهر أن اليبوسيين كانوا قد تعودوا من رذالات النهب والاغتصاب الاسرائيلى ما جعل « أرونا » يندهش عندما وجد داود يدفع له ثمن

الجرن ، وكان قد عرض عليه ـ اتقاءً لشره ـ أن يأخذه بلا مقابل ، « فقال الملك لارونا : لا ، بل اشتري منك بثمن ، فلا أحرق القرابين للرب إلهي مجاناً » . (صمويل الثاني ٢٤) .

أما عدد الصناع الذين اجتمعوا في أورشليم لينفذوا لسليمان المشروع الذي أوصى به أبوه داود فضخم جداً يزيد على مائة وخمسين ألف عامل ، والهيكل بناءٌ صغير حسب أوصافه التي وردت إلينا (طوله ٣٢ متراً ، وعرضه ١١ متراً وارتفاعه ١٦٧ متراً بالتقريب) مما يدعونا إلى التساؤل : هل كانت كل مواد البناء التي أعدها داود ، وهذا العدد الضخم من العمال والفنيين مخصصة للهيكل وحده ، أم أن الأمر على ما يذكر « لويس براون » من أن الهيكل لم يظفر من ذلك إلا بالقدر الأقل بينما الجانب الأكبر قد خُصص لمبان أُخرى أقل اتصالا بتمجيد « الرب » ، منها القصر الملكي لسليمان ، وقصر زوجته ابنة فرعون ، والصروح البديعة ، والفيلات الأنيقة ، التي أعدها لنسائه الكثيرات جداً ، والأبنية الحكومية المختلفة ، وحتى المعابد الوثنية التي أُقيمت خصيصاً لمن رفضن التهود من النساء الأجنبيات اللاتي أحبهن سليمان (الملوك الأول ١١) .

مهما يكن من شيءٍ فإن العمال الذين جاءوا لتنفيذ المشروع كان معظمهم من الأجانب كما قلنا ، وينقسمون حسب ما جاء في الإصحاح الخامس من سفر الملوك الأول إلى الفئات الآتية :

١ ــ ٣٠,٠٠٠ عامل لقطع الأخشاب يكونون ثلاث ترحيلات كل منها عشرة آلاف عامل ، تذهب إلى لبنان فتعمل شهراً ثم تعود إلى

فلسطين فتمكث شهرين هما مدة الترحيلتين الأُخريين ، بحيث تعمل كل واحدة من التراحيل الثلاث أَربعة أَشهر على أَربع فترات فى السنة .
وكان الخشب المقطوع يأْتى من لبنان بحراً إلى يافا ، والمذكور منه نوعان هما الأَرز والسرو ، وورد فى سفر أَخبار الأَيام الثانى ٢/٨ اسم غامض لنوع ثالث ، ترجمه المترجمون بالصندل ، ومعروف أَن الصندل لا ينبت فى لبنان ، ولعل المقصود بالكلمة العبرية وهى من غريب اللغة – خشب الساج ، وهو خشب شجر يميل إلى الحمرة ويستعمل فى النجارة ، (وقد اعتمدنا فى هذا التصحيح على المعجم العبرى العربى « جامع الأَلفاظ » تأْليف أَبى سليمان داود بن إبراهيم الفاسى الذى يرجع إلى حوالى سنة ٩٥٠ م) .

٢ – ٧٠٠٠٠ حمال

٣ – ٨٠٠٠٠ حجار ، يهيئون حجارة البناء فى « محاجر سليمان » فى الطرف الشمالى من جبل الزيتون ، إلى أَقصى الشرق من مدينة القدس .

٤ – ٣٣٠٠ رؤساءُ تشغيل (عمال فنيون ، . « أُسطوات » ، ملاحظون) وعددهم فى سفر أَخبار الأَيام الثانى الاصحاح الثانى – مختلف إذ هو ٣٦٠٠

٥ – ٥٥٠ بناءُون من صور وجبيل ، وهما المدينتان الفينيقيتان المشهورتان فى العصور القديمة باتقان بناء الحصون والقلاع .

وفى ربيع السنة الرابعة من جلوس سليمان على العرش وضع الحجر الأَساسى للمشروع بعد خمسمائة سنة من خروج بنى إسرائيل من مصر مع موسى ، وتم البناءُ بعد سبع سنين ، فى خريف السنة الحادية عشرة من ملك سليمان أَيضاً .

يقول المؤرخ اليهودى اليونانى يوسفوس (تاريخ اليهود ، الجزء الثامن ، الفصل الثالث) : إن سليمان قد وصل بأساس الهيكل إلى عمق سحيق ، وكان هذا الأساس يتكون من مكعبات من حجر شديد الصلابة ، يمكن أن يتحمل بعد إرسائه فى أعماق الأرض كل ثقل المبنى القائم عليه ، والذى يزيد من ثقله كل التصميم الزخرفى الذى أعده له سليمان ، وهو تصميم يزن مثل وزن الهيكل نفسه وكانت حجارة الأساس هذه بيضاء ، وكان طول الأساس ستين ذراعاً (٣١ر٥ متر) وعرضه عشرين ذراعاً (١٠ر٥) ، وهذه هى أبعاد الهيكل الظاهر فوق سطح الأرض حسب رواية الكتاب المقدس ، أما عمق الأساس فكان ستين ذراعاً أيضاً (٣١ر٥ متر) ومفهوم كلام يوسفوس أن الكتلة المحددة بهذه الأبعاد كانت كلها مصمته ، مملوءة بالمكعبات الحجرية الضخمة ، ولم تكن مجرد « سياج » يحيط بالأرض

ويرجح كثير من الأثريين وفى مقدمتهم الأثرى الفرنسى « دى سولسى » فى كتابه « تاريخ الفن اليهودى » أن الهيكل الذى بناه سليمان كان فى داخل سور يحيط بكل جبل الهيكل ، بدليل أن الهيكل الذى بناه اليهود بعد عودتهم من السبى البابلى فى نفس المكان ، وبعد سليمان بنحو خمسمائة سنة أخرى ، كان يحيط به سور أيضاً ، وكذلك الهيكل الذى عمره هيرودس بعد ذلك بخمسمائة سنة أخرى ، ثم الحرم الإسلامى الشريف الذى قام أخيراً ، فى نفس المنطقة التى كان « ملكيصدق » يدعو فيها باسم الله العلى ، فى زمن إبراهيم ويبدو أن السور الذى كان يحيط بمنطقة الهيكل على أيام سليمان ، كان مربعاً طول ضلعه مائة وثمانون متراً (فتكون مساحة ما يحيط به السور نحو

ثمانية أفدنة إلا ربعاً) . وبهذه المناسبة يذكر الأثرى الفرنسى « دى سولسى » مقاييس الحرم الإسلامى الشريف فى نفس المنطقة وفى العصر الحديث كما قاسها هو بنفسه ، وهى : الضلع الشرقى لسور الحرم وطوله ٣٨٤ متراً ، والضلع الجنوبى طوله ٢٢٥ متراً ، ثم يمتد الضلع الغربى بزاوية منفرجة وفى خط غير مستقيم ، بحيث يكون الضلع الشمالى من السور أطول بكثير من مقابله الجنوبى . وينبنى على ما ذكره « دى سولسى » أن تكون مساحة الحرم الشريف أكثر بكثير من ضعف مساحة جبل الهيكل داخل أسوار سليمان ، أو نحميا ، أو هيرودس .

هناك أيضاً أمر يستحق الانتباه ، وهو أن الحرم الإسلامى الشريف مستطيل ، واتجاهه من الشمال إلى الجنوب (فى اتجاه القبلة بمكة المكرمة) ، أما معبد سليمان فهو مستطيل لكن اتجاهه من الغرب إلى الشرق (نحو الشمس) وهو الاتجاه العام فى المعابد القديمة فى بابل أو مصر أو غيرهما من أقطار الشرق الأدنى والأوسط . وإذن فلا يمكن التسليم بسذاجة برأى من يدعون أن الحرم يقوم تماماً على ما كان سابقاً يسمى هيكل سليمان ، حتى لو سلمنا أن الهيكل كان فى هذا الركن بالذات من الجبل ، وهذا لا دليل عليه إلا العنعنات التى اتخذت فى نفوس البعض منزلة مقدسة لتكرارها عبر الأجيال . والذى يستفاد من أوثق النصوص — هو أن الهيكل كان يتضمن التفاصيل الآتية :

١ — قدس الأقداس :

غرفة مكعبة أبعادها طولا وعرضاً وارتفاعاً ١٠٫٥ مترا . وفيها ستار يقسمها قسمين ، فى القسم الداخلى منها تابوت العهد ، وهو صندوق

تحفظ فيه نسخة من توراة موسى مخطوطة على جلد أورق ، عن يمينها وشمالها تمثالان للكروبين يملآن بقية الفراغ . وأصل الكروبين فى عقيدة اليهود أنهما من الملائكة ، وكان اثنان منهما يحرسان أبواب الجنة بعد أن طرد منها آدم وحواء ، ثم انتقلت القصة فى الفولكلور الشرق القديم ، فى بابل وأشور وبلاد الحيثيين وإيران وفينيقيا وغيرها فأصبح « الكروب » نوعاً من أبى الهول المجنح يحرس البناء الذى يوضع فيه ، وكان شكل التمثالين الحارسين يتخذ أسلوب الطراز الفنى للأمة والعصر ، وأغلب الظن أنه كان فى هيكل سليمان أشبه بأمثاله فى المعابد الفينيقية ، أى بأسلوب وسط بين الفن البابلى الأشورى فى العراق والفن الفرعونى فى مصر ، وربما كان فى هيكل هيرودس قد نفذ بشكل أقرب إلى الفن التجريدى ، دون تفاصيل واقعية احتراماً لنهى التوراة عن اتخاذ التماثيل المنحوتة ، فكان « الكروب » أو الملك الحارس يظهر بشكل كتلة وسطى يحف بها جناحان كبيران مدببان ، ولعله من هنا جاء الاعتقاد الشعبى عند الرومان فى أن اليهود يعبدون فى قدس الأقداس صنما على شكل رأس حمار ، إذ بدا لهم جسم « الكروب » بين الجناحين كرأس حمار بين الأذنين الطويلتين ، إذا وضعنا فى الحسبان الفرق الشاسع بين ثقل الفن اليهودى وتخلفه ، وفخامة الفن الرومانى ودقته وتفوقه .

وأما النصف المفتوح من قدس الأقداس فيحتوى فى الوسط على المذبح الذهبى للقرابين ، وإلى يساره منضدة تحمل الشمعدان السباعى الذى يضاء فى أثناء إقامة الطقوس – ويقال : إنه كان فى هيكل سليمان

يضاءُ باستمرار لا ينطفئ أبداً ، وإلى يمين المذبح الذهبي منضدة لخبز التقدمة الذى يدخل فى الطقوس اليهودية أيضاً .

٢ – البهو المقدس :

وهو المكان الخاص باجتماع الناس للعبادة وإقامة الشعائر ، ويفصله عن قدس الأقداس باب ، وعلى جانبيه صفت مناضيد لوضع المسارج والشموع .

٣ – قاعة المدخل :

وهى أول مكان يلى الباب ، وليس بها أثاث دينى معين ، وهى التى يليها من الخارج باب الهيكل ، وكان عليه عمودان أحدهما عن اليمين باسم « ياكين » أحد أحفاد يعقوب من سبط شمعون ، والثانى عن اليسار باسم « بوعز » ، أحد أبطال سبط يهوذا القدماء . وعلى جانبى هذا الصحن الخارجى المكشوف الذى يقوم فيه العمود ان أحواض لغسل الذبائح ، ومذبح فى الهواء الطلق لتصعيد القرابين التى تحرق بالنار من هذه الذبائح ، يصعد إليه بسلم من عدة درجات وفى زاويتى المبنى سلمان يوصلان إلى الطوابق العليا التى بها غرف الكهنة ومرافق الهيكل . وعن يسار المذبح الخارجى « بحر النحاس » وهو حوض نحاسى كبير يحمله اثنا عشر ثوراً من البرنز .

وهكذا يكون طول المبنى كله ٣١٫٥ متراً وعرضه ١٠٫٥ متراً ، وارتفاعه فيما عدا قدس الأقداس ١٥٫٧٥ متراً ، بينما قدس الأقداس سقفه منخفض نسبياً ، فارتفاعه كما قلنا ١٠٫٥ متراً .

وكان من الداخل مغطى بالنقوش المنحوته فى الحجر والخشب من أزهار ونباتات وكروبين وكما يقول لويس براون ، لم يكن المعبد لا فخماً ولا ضخماً إلا فى أعين اليهود البسطاء الذين لم يكونوا قد وصلوا من الحضارة إلى درجة يطمحون معها فى إنجازات معمارية كالتى كانت سائدة فى نفس العصر فى مصر الفرعونية أو بابل وأشور أو إيران أو الهند .

وقد بقى هذا الهيكل حتى خربه بختنصر فمحا أثره محواً تاماً فى القرن السادس قبل الميلاد . وربما دخلت حجارة من أنقاضه فى أبنية متأخرة ، ظن بعض الباحثين . بحسن نية أو للمغالطة وتشويه التاريخ ، أنها بقايا من إنجازات سليمان .

الهيكل الثانى

كان هم العائدين من السبى البابلى الذى دام سبعين سنة أن يبسطوا سلطانهم مرة أخرى على فلسطين ، وأن تقوم لهم دولة ، تحت وصاية « قورش » امبراطور إيران فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وأن تكون هذه الدولة قنطرة للتوسع العسكرى الفارسى فى الشرق الأوسط ، الذى انتهى باستيلاء قمبيز على مصر نفسها . وإذا كان السادة الفرس لم يعطوا اليهود « وطناً قومياً » إلا بشروط معينة خلاصتها الولاء التام والتبعية المطلقة لسياستهم بخيرها وشرها فإن اليهود أرادوا أن يعيدوا بناء أورشليم ، وتشييد هيكل سليمان ، حتى تكون هذه الواجهة أمام

الناس تعمية على التبعية التى رضخوا لها صاغرين . ولقد حاولوا جاهدين أن يبنوا الهيكل الثانى على نفس المخطط الذى بنى عليه الهيكل الأول ، هيكل سليمان ، وانتهى البناء فى عهد دارا الأول الفارسى .

كان الذين عادوا من السبى نحو أربعين ألف يهودى أو يزيدون قليلا ، وكان على رأسهم « يوشع بن يوصدق » و « زروبابل بن شلتئيل » ، فبدآ ببناء مذبح للمحروقات فى الهواء الطلق على جبل الهيكل الذى كان وقتها خراباً ، وفى اليوم الأول من الشهر السابع من عودة اليهود من بابل إلى فلسطين كانت الطقوس تقام أمام هذا المذبح ، ثم لما لحق « عزرا » و « نحميا » بالعائدين إلى فلسطين من اليهود بدأت أعمال البناء والتحصين وإقامة أسوار أورشليم تتخذ شكل الإنجاز النشيط ، رغم بعض العقبات التى كانت تقيمها الحكومة الفارسية من حين لآخر ، ورغم مقاومة غير منظمة قام بها أمراء حوران وعمان والجزيرة العربية ، والفلسطينيين المتمركزين فى أشدود (سفر نحميا ، الإصحاح الرابع وما بعده) .

وهذا الهيكل الثانى أيضاً انتهى أمره بالدمار التام بعد إقامته بخمسة قرون على يد تيتوس الرومانى . يقول يوسفوس فى كتابه « حرب اليهود » (الجزء الخامس ، الفصل الرابع ، الفقرة الثالثة) : « وكان تيتوس كلما وجد الجنود الرومان قد فرغوا من قتل جميع الناس فى المنطقة التى يسيطرون عليها ، أمرهم أن يخربوا أورشليم ومعبدها وأن يقلبوها ظهراً على عقب ، فيما عدا الأبراج العالية التى كان يحرص على بقائها كشواهد على ما قام به من تدمير » . وهكذا

انمحت معالم هذا الهيكل أيضاً إلا بقايا نادرة ، مع ملاحظة أنه عند وصول تيتوس كان هيرودس ، قبله بنحو قرن من الزمان ، قد أدخل تعديلات وتغييرات على الهيكل الثانى ، وعلى تخطيط المدينة نفسها ، كانت وحدها ، وبدون هدم أو تدمير ، كفيلة بجعل الوصول إلى التخطيط المعمارى المبدئى الهيكل الثانى أمرًا يكاد يكون مستحيلا ، بالرغم من كل المحاولات التى أراد الباحثون اليهود أن يخرجوا منها بمخطط معمارى دقيق مستمد من عنعنات التلمود ومنهم الأثرى اليهودى « أيز نشتاين » مثلا . وأما ما جاء من جعل الصخرة الشريفة هى نواة قدس الأقداس فقد بينا الشكوك القوية التى تحوم حول هذا ، وأولها ما ذكرناه من الاختلاف الشديد بين صخرة قدس الأقداس وصخرة المعراج النبوى المبارك من حيث الحجم والارتفاع عن الأرض .

وانطلاقاً من هذا المخطط التلمودى ، ومع الوصف الذى أورده المؤرخ يوسفوس وغيره ، تجدنا مضطرين إلى أن نسجل مرحلة ثالثة متطورة جداً من الهندسة الدينية اليهودية فى حالة معبد أورشليم إبان ظهور المسيح .

هيكل هيرودس

وقد استفاد بعمق من العمارة اليونانية الرومانية ، وكادت تختفى منه الملامح الدالة على أصله اليهودى تماماً ، وهذا الهيكل هو الذى دمره تيتوس ومحاه من الوجود سنة ٧٠ ميلادية ، وحائط المبكى كان على الأرجح جزءًا من جداره الغربى . واليهود يحرصون على تسميته حتى الآن « الجدار الغربى » .

هيكل جوبيتر كبير آلهة الرومان

على أثر الثورة التى قام بها فى أورشليم ضد الحكم الرومانى الزعيم اليهودى « بركوكبا » جاء الامبراطور هدريان (فى أوائل القرن الثانى الميلادى) وأزال كل شىء يهودى فى أورشليم حتى اسم المدينة كما قلنا ، وعلى أنقاض الهيكل بنى معبداً رومانياً لكبير الآلهة « جوبيتر » وأقام تمثالا لهذا الإله وآخر للإلهة فينوس ، وجعل هذا الصرح على جبل أورشليم أشبه بمعبد الكابيتول الواقع على أحد جبال روما السبعة ، ولذا أعطاه اسمه شخصياً « اليوس » واسم « الكابيتول » ، وحرم استعمال اسم أورشليم وأحل محلها الاسم الرومانى الذى صنعه هو « إيليا كابيتولينا » حتى أصبح اسم أورشليم لفظاً تاريخياً يطلق فقط على المدينة التى كانت فى هذا المكان على عهد الملوك والأنبياء من بنى إسرائيل وظلت المدينة تسمى « إيليا » ولا يسكنها اليهود حتى الفتح العربى فى القرن السابع الميلادى ، حيث كانت المنطقة الوثنية التى أنشأها هدريان قد خربت ، وجاء ثانى الخلفاء الراشدين عمر بن الخطاب فأنشأ مسجداً بسيطاً لجنده ، هو نواة الحرم الشريف والمسجد الأقصى ، بعد أن كان الاسلام قد كرس تلك البقعة المباركة ، بوحى قرآنى ، وبمعجزة الإسراء والمعراج المحيرة للأذهان .

فهرس الكتاب

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

وكيل أول

رئيس مجلس الادارة

على سلطان على

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٧٣/٥١٤٣

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

٥٠٠٢-١٩٧٣/٤٠-١٣٢٢٩